بحر الكتب
bahr.alktob

حسن كمال

وكان فرعون طيبًا!

دار الشروق

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

وكان فرعون طيبًا!

بحر الكتب
bahr.alktob

وكان فِرعونُ طيبًا!!

حسن كمال

تصميم الغلاف: أحمد مراد

الطبعة الأولى ٢٠١٣

تصنيف الكتاب: أدب/ قصص قصيرة

© دار الشروق

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
www.shorouk.com

رقم الإيداع ٢٠١٧٣١٦٨/ ٢٠١٣
ISBN 978-977-09-3219-3

بحر الكتب
bahr.alktob

حسن كمال

وكان فرعون طيبًا!

دار الشروق

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

إهـداء

إلى كل مَن عاشر الفراعنة والعبيد ولم يصبح منهم

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

شكرٌ خاص للكاتب والصديق أحمد مراد

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

محتويات

الحجر والخازوق والسلسلة المعدنية ١١
عيّاش ١٧
أَنْت! ٢٥
وكان فِرعونُ طيبًا!! ٢٨
مسرحية من فصل واحد «متكرر»!! ٣٨
آدم.. وولده ٥١
عاهرة المدير ٥٤
أحلام الغرف المعدنية ٦٤
سوار.. لمعصم آخر ٧٠
صبغة سوداء ٧٤
الخروج إلى النص ٧٨
معطف رمادي جديد ٨٣
المـصلوب!! ٩٠
ضَفدعة الحَمَام ٩٧
صورة دم كاملة ١٠٢

بحر الكتب
bahr.alktob

عيون.. وآذان.. وألسنة!! ١١١
أمر عابر في نهاية اليوم ١١٦
كل شيء على ما يرام!! ١٢٤
على وجه السماء ١٣٠
طِبْقًا لنظام الحديقة ١٣٤
قلب سليم ١٣٩
مَحَلَّك سِر ١٤٥
عسكر وحرامية ١٥٠

بحر الكتب
bahr.alktob

الحجر والخازوق والسلسلة المعدنية

يتحرك ببطء مجرجرا ساقه التي تحمله واقفا ويحملها هو ماشيا، كان الأمل يملؤه عندما جاب بها شوارع القاهرة للمرة الأولى، ينحني ليزحزح الحجر الأسمنتي القاسي الكئيب، يغرس الخازوق المعدني في منتصفه، يصب على قاعدته المزيد من الأسمنت ليثبته فيها ثم ينظر إليهما في غضب!!

بضع خطوات تجاه الحجر الآخر ليكرر نفس ما فعله.. حجر يحبس خازوقا آخر في داخله، وخازوق مغروس في قلبه بثبات. يحفر حفرتين بالعمق الكافي لابتلاع الحجر، يهيل عليهما شيئا من التراب ثم يصب المزيد من الأسمنت الذي سيقسو بعد دقائق، يمد قدمه الأخرى ليسوي الأرض من فوق الحجر، تمتد سلسلة معدنية صدئة لتغلق الدائرة.

- تك!!!

جاء صوت القفل الذي قيد العمودين المعدنيين بالسلسلة ليعلن انتهاء المهمة، يتنهد في ارتياح مَن أنهى عملا ثقيلا، يفرك يديه محاولا أن ينفضهما مما علق فيهما.

بحر الكتب
bahr.alktob

- الله يخرب بيتك يا عادل بيه.

قالها بحركة صامتة من شفتيه وهو يراه يخرج من البناية. اقترب «البيه» ونظر إلى ما فعله مجاور.. رفع صوته في سعادة:

- مش بطال يا مجاور.. هات بقى نسخة من المفتاح.

مد يده بالمفتاح، تردد قليلا وهو يهمس بصوت مبحوح:

- أقول إيه للسكان ياعادل بيه؟

- اللي مش عاجبه يخبط راسه في الحيط. قل لهم الباشا هو اللي عمل كده.

هز رأسه في استسلام. لم يعترض أبدا أي من السكان على ما يفعله الباشا.. ولا هو بالطبع. والباشا هو ابن عادل بيه الأكبر، سر باشويته ليس فقط في ملابسه الميري والسيارة الفارهة و«البوكس» والجنود الذين يقومون على خدمته، بل أيضا في لسانه الذي لا يتوانى عن إطلاق وصلات طويلة من السباب الذي لا ينتهي. دائما ما تُنهي أي معركة بينه وبين واحد من السكان نظرة نارية في عين الساكن، تتلوها صفعة قاسية على وجه أحد الجنود القائمين على خدمته، أو حتى على وجه مجاور. حدث هذا معه مرة واحدة فقط. تعلم بعدها أن يبقى بعيدا عن مرمى صفعات الباشا التي لم ينس أن يلحقها بشجاراته ولو لمرة واحدة، الغريب.. أن كل الأصوات كانت تخفت تماما بعد الصفعة التي تنزل على وجه ثالث.

عاد إلى مقعده الخشبي. فرد ساقه الصناعية وهو ينظر إليها في شرود. أول مرة انتبه فيها لمرارة الظلم كانت عندما أفاق ليكتشف أن

بحر الكتب
bahr.alktob

ساقه بترت. عض شفتيه وقاوم أن تسيل دموعه أمام أولاده، لكن عندما جاء وكيل النيابة وسأله عن سبب المشاجرة انسابت دموعه في غزارة. اكتشف أنه لا يعرف سبب قتالهم الذي انخرطوا جميعا فيه كقطيع من كلاب الليل. خرج صوته مرتعشا وهو يجيب وكيل النيابة:

- كانت أوامر الحاج؛ قال لنا نكسر السور وندخل أرض ولاد علي!!

- هي أرضه ولا أرض ولاد علي؟

- ما اعرفش.

- وبعدين؟

- هجموا علينا العمال.

- مين اللي ضرب نار؟

- ما اعرفش.

- مين اللي كان معاه سلاح؟

- كلنا.

- الحاج كان موجود؟

- ما اعرفش.

- الحاج عارف اللي جرالك؟

- ما اعرفش.

- الحاج قال إنه ما يعرفكش.

بحر الكتب
bahr.alktob

- هو هيعرف مين ولا مين!!

خرج من المستشفى بساق خشبية ثقيلة من أموال الصدقات الموجودة في المستشفى، فقد أنكر الحاج وأولاد علي كل شيء عن هذه المشاجرة، ورفضوا أن يتكفلوا بعلاج العشرات من المصابين الذين خرجوا جميعا مكتملين من المستشفى. عدا مجاور.

- الظلم بيجري ورايا، وآني عاوز أبعد عنه!!

قالها لزوجته وهو يراها تبكي عندما ألقت نظرة أخيرة على العشة التي كانا يقطنانها، استشهد بأنه لم يجد عملا إلا في أرض الحاج الذي لا يرحم.. وبأنه كان موجودا يوم المشاجرة.. وأن الرصاصة الطائشة اخترقت ساقه هو. وبأنه ظل غارقا في دمائه لساعات طويلة إلى أن نقلوه إلى الوحدة الصحية. وبأن الطبيب لم يكن موجودا لعدة ساعات أخرى، وعندما جاء صرح بأنه لا بد من نقله إلى مستشفى المركز وهو يبصق على دولاب أدواته الفارغ. وبأن ساقه لم تقاوم بما يكفي وتعفنت فكان لا بد من بترها. وأن الحاج وأولاد علي اتفقوا سويا ـ لأول مرة ـ على ألّا يدفعوا مليما لأحد من الجرحى، وأنه بعد أن خرج من المستشفى منح لقبا جديدا كان أثقل عليه منه ساقه وهو.. مجاور الأعرج؛ لذلك كان لا بد أن يرحل.

ابتسم بانكسار وهو يمسح ساقه بالفوطة الصفراء. وينظر إلى السلسلة المعدنية الصدئة ويغمغم:

- طلعت آني اللي باجري وراه!!

بدأ السكان يأتون واحدا تلو الآخر؛ يتساءلون في غضب عن

بحر الكتب
bahr.alktob

السلسلة التي تشغل مكانا يكفي ثلاث سيارات على الأقل، يخبرهم بأنها أوامر الباشا، فتصب اللعنات عليه وعلى أبيه وأمه.. وعلى الباشا وعلى عادل بيه.. فيكررها عشرات المرات بصوت خافت كما لو كان يهذي:

- أوامر الباشا.

لم يجرؤ واحد منهم على مناقشة الباشا حتى عندما جاء ليزور أباه وأوقف سيارتيه إلى جوار سيارة أبيه التي عادة ما تقف وحيدة خلف السلسلة الطويلة.. وإن حافظوا على اللعنات التي يصبونها على رأسه يوميا.

كان يتمنى في أعماقه أن يرى أحدا يحطم زجاج السيارة، أو على الأقل يترك سيارته بعرض الطريق أمام السلسلة. لكن أحدا لم يفعلها. تمنى أن يرى معركة صغيرة تنتهي كحكايات جدته بانتصار الخير؛ تلك التي سمعها في طفولته كثيرا لكنه لم يرها بعينيه مرة واحدة.

أصبح يرى البيه وهو يركب سيارته كل صباح، فيتمتم عشرات المرات بنفس الدعاء الخافت الصادر من قلبه:

- ربنا ياخدك يا عادل بيه.

يلحقه بدعاء آخر يتزامن مع ظهور الباشا:

- ربنا يهدك أنت كمان.

ظل الدعاءان يخفتان يوما بعد يوم، إلى أن اختفيا تماما، ثم عاد إلى الدعاء مرة أخرى بعد أن تحقق نصف ابتهاله القديم بوفاة البيه،

بحر الكتب
bahr.alktob

وأصبح الباشا لا يأتي إلا قليلا ليأخذ نقود الإيجار التي يجمعها مجاور. فيهمس:

- ربنا يعلِّي مراتبك كمان وكمان، ويرحمك ويسامحك يا عادل بيه.

يقولها وهو جالس هناك إلى جوار السلسلة المعدنية كل صباح. يفتح القفل لسيارات من يدفع له ما يطلب. ترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة عندما يرى الصغار يلعبون بجوار السلسلة التي أطلقوا عليها سلسلة عم مجاور. تصفر ابتسامته عندما يرى واحدا من السكان الذين يعرفون حكايتها وإن لم يعترضوا عليها أبدا. وتغيب ابتسامته تماما عندما يطلب منه أحدهم إزالتها، فتتحول ملامحه إلى الغضب الشديد وهو يصرخ بخليط من الكلمات والتهديدات تتبين في وسطه بصعوبة اسم البيه وسطوة الباشا والوصية والعهد. يلحقه بنظرة نارية قاسية. ثم يرفع كفه عالية ويهوي بها في قسوة على وجه زوجته العجوز أو واحد من أحفاده.. فيسود الصمت!!

بحر الكتب
bahr.alktob

عيّاش

لم أعتد أن أندهش مما أكتب، ولا أن تأخذني شخصية ما في اتجاه آخر غير الذي رسمته لها. إلا هو.. فاجأني من أول سطر في القصة، عندما خالف رد فعله ما كان في ذهني تماما؛ كنت أريد أن أكتب أنه عندما فتح الباب وقف يحدق في جاره بفزع تشوبه الدهشة،أو أنه كاد يخر مغشيا عليه من الرعب، أو حتى أنه مد يده ليسنده في تعاطف حقيقي.فاجأني – وربما فاجأ جاره مختار(بطل القصة) – بضحكة بلهاء ساخرة مليئة باللامبالاة. فسرتها أنا على أن مظهره كان غريبا وهو يحملها تحت إبطه كأنها بطيخة،لكن الموقف أشد وأغرب كثيرا من أن يضحك،ولن يكون مقنعا للقارئ.لذلك جعلت مختار يسأله:

– علام تضحك؟ قطعوا رأسي وأنا نائم!!

كان يمسكه في يده والدماء تقطر منه.. عيناه مفتوحتان ولا ترمشان وقد اتسعتا كثيرا.. الكلام يخرج من فمه الموجود في

بحر الكتب
bahr.alktob

الرأس المقطوع.. أما رقبته فكانت تبدو أطول من المعتاد وقد بدت قمتها كنافورة صغيرة يخرج منها الدم على دفقات بغير انقطاع.

أخذ نفسا عميقا ليكتم ضحكاته المتتالية.. حاول أن يبدو جادا وهو يسأل:

- من الذين قطعوا رأسك؟

رفع مختار رأسه بين يديه إلى أعلى.. جعل عينيه في مواجهة عينَي عياش وهو يقول:

- ألا تعرف؟!!

مرة أخرى سبقني عياش قبل أن أكتب.. فخرج صوته مبحوحا وهو يرسم على شفتيه ابتسامة صفراء:

- على الأقل لم يقتلوك.

كاد مختار يقذفه برأسه الذي في يده لكنه تردد في اللحظة الأخيرة بعد أن شعر بدوار شديد عندما رفعه بسرعة.. صرَّ على أسنانه في غضب وهو يقول:

- قطعوا رأسي؛ بالطبع كانوا يريدون قتلي.. لكني لم أمت.

ربت عياش كتفيه بصدق وهو يقول:

- الحمد لله، تعالَ ادخل.. أعد لك الإفطار؟

هز مختار كتفيه رافضا في غيظ وهو يقول:

بحر الكتب
bahr.alktob

- أريد أن أذهب لتركيب رأسي.. لا أستطيع أن أقود سيارتي، ولن أمشي برأس في يدي في الشارع.. هل ستساعدني؟

بدا على عياش التردد. هنا كان لا بد أن أتدخل.. يجب أن أجعل عياش يتذكر كل المرات التي ساعده فيها مختار وهي كثيرة.. وأن يتذكر أن مختار هو الذي حمل أم عياش إلى المستشفى عندما تأخر هو في عمله رغم علمه بأنها مريضة.. وأن مختار هو الذي دافع عن بيته عندما سمع لصوصا يكسرون بابه أيام كان هو في المصيف. طبقا لرسم شخصية عياش ليس ذلك كافيا، لذلك أضفت سطرا واحدا فقط.. أن «عياش» فكر في قوة مختار الذي لم يمت رغم أن رأسه قطع، والذي عُرف عنه أنه لا يترك ثأره. ربما لن ينتقم منه بعد تركيبه لكنه لن ينساها له.. ولن يكون لعياش الحق في طلب أي شيء من مختار بعد ذلك.

ابتسم عياش في اهتمام:

- طبعا سأساعدك.. أنت صديق عمري.

اختلس عياش لقمة سريعة من الرغيف الملقى على المائدة وهو يرتدي ملابسه.. نزلا متجاورين.. مرا أمام حارس العقار الذي صاح غاضبا:

- صباح الخير ياسادة.. سلامتك يا مختار بيه.. هل قطعوا رأسك؟ ولماذا لم يُركبوا لك رأسا؟ كسل؟ بصق على الأرض في غضب وهو يتابع:

- خلاص.. الضمائر ماتت!!

بحر الكتب
bahr.alktob

استدار مختار بكامل جسده إلى الرجل وهو يقول:

- لا يا عم رضوان.. حاولوا أن يُركبوا لي رأسا آخر لكني رفضت.. وطردتهم جميعا.

هز الرجل رأسه متفهما:

- ذكرتني بجدي يا أستاذ.. كان رجلا مثلك، الله يرحمه!!

تدخل عياش في الحوار رغما عني متمتما:

- كان غبيا مثلك!!

توقفت السيارة بعد دقائق أمام المستشفى.. قفز مختار مسرعا.. انطلق إلى قسم الطوارئ.. أمام الباب مباشرة نام على الأرض ووضع رأسه إلى جواره وهو يصرخ طالبا النجدة.

فُتح الباب وخرج ممرضان قصيرا القامة.. جريا نحو جسده الممدد على الأرض.. توقفا فجأة عندما نظرا إليه.. استدارا داخلين وهما يقولان:

- قم يا شاطر.. لا داعي للاستعباط.

قفز مختار واقفا مكانه:

- أنا لا أتظاهر.. رأسي قطع.. وأريد تركيبه.

أشاح أحدهما في وجهه بغضب:

- هنا مستشفى.. لا نُركب هنا رءوسا.. اذهب إلى المبنى المقابل، الدور السابع.. قسم التركيبات.

بحر الكتب
bahr.alktob

هز مختار رأسه في إصرار:

- بل ستركبونه هنا.. أنا مصاب.

نظر إليه الممرض في جدية:

- المرضى لا يمشون برءوس مقطوعة.. ما داموا قطعوها وما زلت حيا فمكانك هناك!!

حاول مختار أن يدخل عنوة لكنهم دفعوه بعيدا.. أين عياش الأحمق؟! كان المفترض أنه سيتدخل هنا والآن ليحاول أن يقنعهم بعلاج مختار ثم يدافع عنه لكيلا يصاب.. لكنه تحرك من الصفحة دون أن ألحظ ذلك.. وعاد داخلا من جانبها فجأة حاملا في يده قطعتين من «البسكويت» (لا بد أن الجوع قرصه). لحق به عند بوابة المبنى الآخر. نظر إليهما رجل الأمن بتفحص.. ارتسمت على وجهه ابتسامة مرحبة:

- الدور السابع.

دخلا من المصعد سويا، وجدا أمامهما قاعة كبيرة دخلها مختار في حذر وخلفه صديقه.. القاعة كبيرة.. عدة رجال ضخام الجثة يقفون في منتصف القاعة.. لم ينتظروا حتى يتكلم أحدهما، لكن أشاروا بأيديهم إلى الصناديق الملقاة في أركان الغرفة، ثم أشاروا إلى مختار:

- اختر ما تريد.

بحر الكتب
bahr.alktob

فتح مختار الصناديق واحدا تلو الآخر.. مئات الرءوس من جميع الألوان والمقاسات.. أبيض وأسمر وقمحي.. أصلع وغزير الشعر.. كل شيء موجود.. هز رأسه رافضا في إصرار:

- لا أريد أيا منها.. أريد أن تركبوا لي رأسي.

تعالت ضحكاتهم جميعا في آن واحد.. أدهشني عياش الذي ضحك على ضحكهم.. اقترب منه أكبرهم وهو يقول:

- يا ولدي.. الرءوس هنا تستبدل ولا يعاد تركيبها.. تعالَ معي.

- خذ أي رأس يا مختار وهيا بنا.

- لا أريد سوى رأسي يا عياش.

وضع العجوز يده على كتف مختار في حنان وهو يهمس:

- صاحبك عاقل يا مختار.. أنصت إليه.

دفعه بعيدا في غضب فأسقطه على الأرض.. هجم عليه الباقون في غضب.. أشار أحدهم إلى الباب المفتوح فأغلق بصوت حديدي جاف.. جاء صوته أجش وهو يقول:

- لن تخرج من هنا حتى تسلمنا رأسك وتستلم رأسنا.

بدأت المعركة.. المدهش أن رأس مختار كان يتحرك بسرعة وقوة مدهشتين ليدافع عنه.. كما كان جسده يدافع عن الرأس.. أما رءوسهم الملتصقة بأجسادهم الضخمة فقد كانت تبدو مقيدة بجثثهم، ضربهم.. وضربوه أكثر، جرحهم.. وجرحوه أكثر. لكنهم فشلوا جميعا في انتزاع رأسه من بين يديه. أخرج أحدهم مسدسه في غضب وأطلق رصاصتين في صدر مختار، ضحك وهو يقول لعياش:

بحر الكتب
bahr.alktob

- قطعوا رأسي ولم أَمُت.. فهل ستميتني رصاصة في صدري؟!

عياش.. أين عياش؟! كلما وضعته في الكادر لا أجده، لكن هذه المرة كانت القاعة ضيقة وواضحة المعالم، كان جالسا على ركبتَيْه في أحد الأركان، يتفحص الرءوس واحدًا تلو الآخر، يضع كلا منها أمام رأسه أو فوق رأسه ثم ينظر إليها في المرآة بإعجاب، ويبتسم وهو يدور بها دورة أو دورتين، التفت فجأة ليجد الأربعة يحيطون بمختار الذي التصق ظهره بالحائط، انقضوا عليه جميعا في لحظة واحدة، لكن مختار كان عنيدا، احتضن رأسه بقوة ولم تتراخَ قبضته رغم كل ما تلقاه من ضرب، طالت المعركة.. ازدادت قسوتهم، شعر عياش بالغضب، تفحصت عيناه أركان القاعة بحثًا عن شيء ما، وجدها خاوية تمامًا، أعرف عياش.. لن يهجم عليهم بيده خاوية؛ لذلك سأُعيد كتابة هذا السطر ليكون هجومه أكثر منطقية.

تفحصَتْ عيناه أركان القاعة بحثًا عن شيء ما، وجدها خاوية تماما.. إلا من سيخ حديدي ضخم ملقًى في الركن بإهمال، انحنى ليمسكه، جرى عليهم في غضب، ابتعدوا جميعا في لحظة واحدة. ابتسم صديقه في وَهَن وتراخت قبضته على رأسه، فركله عياش في لحظة، تدحرج رأسه بعيدا في اتجاه واحد من الرجال الأربعة الذي التقطه سعيدًا، هجم عليه عياش وأخذه منه ووضعه على الأرض وهوى بسِيخه عليه إلى أن تهشم تماما، سقط جسد مختار ميتًا ساكنا إلى الأبد، مال عليه عياش وهو يقول بصوتٍ خالي المعالم:

بحر الكتب
bahr.alktob

- أنا وأنت لن نهزمهم، وهم لن يهزموك حتى وأنت وحدك.. كان الأمر سيطووووول!!

نظرتُ إلى المكتوب في اشمئزاز.. بَصَقت على الأوراق وأنا أمُدّ يدي لأمزقها وأكتبها مرة أخرى من البداية، اندهشت - كما اندهش حتمًا مختار في الفقرة السابقة - وأنا أرى عياش يلتفت لي فجأة قبل أن تصل يداي إلى الأوراق في غضب.. أمسك بالسيخ الحديدي وصوَّبه نحو قلبي.. ثم ألقاه عليَّ في غضب وقسوة!!

بحر الكتب
bahr.alktob

أَنْت!

الواقف هناك أمام ذلك المبنى الكئيب هو أنت.

الشارع الموحول تحت قدميك، والغيوم التي تملأ السماء تزيد من الكآبة التي أوشكت أن تطبق على صدرك. تهب الرياح الباردة فيرتعش جسدك رعشة مضاعفة لأنها تزامنت مع القشعريرة التي انتابتك عندما فكرت فيما يحدث لها في الطابق الرابع من المبنى. تتساءل في حيرة عما إذا كان جسدها الضعيف سيتحمل هذه المرة أيضا.. أم لا.

كالمعتاد، لم تستطع أن تصعد معها، زوجتك أو أبوك هناك بدلا منك؛ لأنك لا تستطيع استقبالها بعد أن تنتهي. وهي تخرج مترنحة شاحبة الوجه والشفتين، قدماها اللتان كانتا كأقدام العصافير واللتان كانت تخمش بهما الأرض بسرعة وتتالٍ لتستقبلك عند باب المنزل وتقفز بين ذراعيك، لم تعودا قادرتين على حملها. لم تعد تستقبلك، أصبحت أنت تتجه مباشرة إلى غرفتها حاملا ما تحمل من الهدايا والحلوى. تأخذ نَفَسًا عميقا قبل أن تدخل عليها، ترفع هي رأسها

بحر الكتب
bahr.alktob

في ضعف عندما تراك، تنظر إليك بعينين ذابلتين، تجاهدان لترسما ابتسامتين على شفاهكما ليخفف كل منكما عن الآخر، تأتي ابتسامتها مائلة على وجهها فتُضاعف من ألمك.. وتشق صدرك شقا.

الواقف هناك هو أنت، تشخص ببصرك إلى السماء، تشعر أنك تعيش في كابوس أسود، تخشى أن تتمنى نهايته لأن النهاية التي تظنها قادمة لا محالة؛ أسود كثيرا من كابوسك. المرأة الواقفة في الشرفة عن بُعد، والتي وقع بصرها عليك لا تراك. مشغولة هي بحسرتها على شبابها الذي يضيع مع زوج بارد وأولاد ثلاثة يقضون وقتهم بعيدا عنها في حياة طبيعية تتمنى أنت نصفها لابنتك، ترى هي الأخرى حياتها سوداء؛ ربما لأنها لا تعرف شيئا عن السواد الذي يحيط بك.

تلتفت إلى الرجل الذي يصيح غاضبا أمامك لاعنا سوء الحظ الذي يلازمه ويجعل أحمقَ آخر يصطدم بسيارته الجديدة للمرة الثانية في يوم واحد، تسمع مناجاته الوقحة إلى السماء فتشيح برأسك بعيدا، وتنظر في ساعتك وأنت تتنهد متمنيا أن يكون مرور الوقت عليها أسرع ولو قليلا.. من زحفه عليك.

الواقف هناك ينظر من آنٍ لآخر لتلك اللافتة التي تساقطت بعض حروفها وغطى مكانها التراب؛ هو أنت.. مستشفى الأورام.. تتساءل أحيانا: هل سقطت هذه الحروف ذاتيا أم أسقطها بحجر واقفٌ مثلك في يوم من الأيام؟ تسلي نفسك بانتزاع ما تشاء من الحروف بعينيك، وإعادة ترتيبها كما يتراءى لك. تردِّدُ هامسًا: متى.. مشت.. شفيت.. لا.. أو.. ألم..أمل.. موت.. كلمات وحروف..كل منها

بحر الكتب
bahr.alktob

يولّد في داخلك شيئا ما.. توقف لعبتك فجأة.. لا رحمة بنفسك.. بل.. خوفا عليها من فأل كلماتك الذي غالبا ما لا يكون محايدا.

لن تطول وقفتك بعدها.. ستأتيك بعد قليل محمولة لأنها لن تستطيع المشي بعد جلسة علاجها القاسي، وستوضع في الكنبة الخلفية لسيارتك، لكنها ستتعلق برقبتك بكل ما تبقى من قوة في ذراعيها، وستُقَبّل خدك بضعف يشعل كل الضعف في داخلك فتفلت منك دمعة ساخنة ستحاول أن تخفيها عنها.. وستتجنب أن تلتفت إليها طوال الطريق إلى أن يجبرك صوتها وهي تتقيأ على أن تقف لتساعدها رغم أنك تعرف أنك عاجز عن ذلك.

بعد أيام قليلة ستجد نفسك واقفا هناك مرة أخرى. وسيدة الشرفة ستخرج مرة ثانية. والحمقى ذوو الأصوات العالية يتشاجرون ويلعنون قدرهم وأنت تلعنهم في سرك. وتهب رياح باردة فتأتي ارتعاشة جسدك مضاعفة. ستندهش عندما يأتي عليك الصيف وأنت واقف هناك فتسري في جسدك نفس الرعشة الكريهة مضاعفة أيضا.

الواقف هناك الآن في الظلام التام منتظرا - لحُسن حظك - ليس أنت، لكنه شخص آخر يناديه مَن يعرفونه بنفس ما أخاطبك أنا به الآن.. أنت!!

بحر الكتب
bahr.alktob

وكان فِرعونُ طيبًا!!

عندما دق جرس الفسحة في ذلك اليوم كان الأستاذ عبد الحميد على غير العادة أول مَن دخل إلى غرفة المدرسين.. يرتدي واحدة من «بدله» الشهيرة التي يعرفها كل الطلبة جيدا والتي يفصلها خصيصا عند ترزي عجوز في السيدة زينب.. تختلف ألوانها ويظل التصميم واحـدا.. جيبان على الصدر ونصف كم طويل وبنطلون «قلاب».. هكذا وصفها عندما غاب العجوز وحل مكانه واحد من أبنائه بشَعر طويل ونظارة شمسية. كان كل ما يتغير في ملابسه من يوم ليوم هو اللون فقط، وكل ما يتغير في كلامه هو اسم المخاطَب بينما حواراته متشابهة. حتى نِكاته وحكاياته في الفصل كانت محفوظة تماما من كل الطلبة، لدرجة أن بعضهم كان يعرف متى سيسكت ومتى يتنهد ومتى يضحك.. لكن الأستاذ عبد الحميد أجرى تغييرا ملحوظا في ذلك اليوم.. فهو لم يجلس على الأريكة التي في الركن والتي يهوى الجلوس عليها متظاهرا بالنوم في الأيام التي يحمى فيها الحوار بين المدرسين، لا سيما الشباب منهم.. بل اختار كرسي

بحر الكتب
bahr.alktob

الصدارة على المائدة التي تتوسط الغرفة.. وَضَعَ الكراريس أمامه وبدا عليه الترقب. توافد المدرسون واحدا تلو الآخر.. كان أغلبهم يندهش عندما يراه جالسا في مكانه الجديد.. مازَحَه الأستاذ حازم مدرس اللغة الإنجليزية وهو يقول:

- نوَّرت المائدة المستديرة يا أستاذ عبد الحميد.

ابتسم هو في تحفُّظ. بدأتِ الغرفة تمتلئ، لم يَخِب ظنه؛ فبعد دقائق بدأ الحوار الجماعي بنفس الترتيب الذي كان يتوقعه: أحوال المدرسة. الشكوى من الناظر.. تدني مستوى الطلبة..ثم السياسة. اليوم هو مستعد للسياسة.. فقد راجع ما سيقوله عشرات مرات، واستيقظ مبكرا ليجمع بعض الصور من كتب التاريخ والمجلات والجرائد، وجمع كل شيء في ملف واحد ليستشهد به على ما سيقول. ظل يتحين الفرصة ليلقي بقنبلته في وجه الجميع. في العادة لا يشارك الأستاذ عبد الحميد في حواراتهم، يسمعهم وهم يعلقون على عينيه اللتين تغمضان بمجرد أن يبدأ الحوار السياسي فيتظاهر بالنوم. لم يكن يجد ما يقوله، كان يندهش من هؤلاء الشباب الذين لا يُبدون أيَّ قدر من الاحترام للكبار في حواراتهم.. فينتقدونهم ويهاجمونهم، بل وأحيانا تفلت من أحدهم ألفاظ غير لائقة.. يتداركها باعتذار للمدرسات اللائي يُخفين ابتساماتهن. كثيرا ما كان يقول لزوجته وهو يتناول عشاءه المعتاد في نهاية يومه الطويل:

- القوالب نامت والأنصاص قامت.. تعالي شوفي العيال بيتكلموا إزاي!!

بحر الكتب
bahr.alktob

فتمصمص زوجته شفتيها وتقوم لتُعدّ له الشاي وهي تردد كأنها تزوم:

- القيامة لازم تقوم يا عبد الحميد.

فيهز رأسه مؤمِّنًا على كلامها:

- آه والله يا عديلة.

ثم يبدأ في الحديث معها عن قلة أدبهم وتطاولهم على (الكبار). والكبر في نظره ليس في السن.. بل في المقام.. لذلك فهو يرى أن حضرة الناظر أكبر من الأستاذ خليل مدرس الرسم؛ والذي يكبر الناظر بخمس سنوات، ويرى الناظر أصغر من مفتش الوزارة الذي لا يَعرف له سنا، يرى مفتش الوزارة أصغر من الضابط الذي يقف في اللجنة التي يمر بها أحيانا في المساء، ويرى نفسه أكبر من كل هؤلاء المدرسين الذين يجلسون من حوله..والذين يغيظونه كل يوم بحديثهم السياسي الوقح.. طالما أراد أن يرد عليهم، لكنه لم يكن لديه ما يدافع به عن رأيه.. لذلك كان يفضل أن يتظاهر بالنوم لكيلا يُتهم بالجهل ولا بالسلبية كما يقولون دائما، فهو يرى أن هؤلاء لا يحق لهم الكلام فيما لا يعرفون؛ فالحكم لأهل الحكم.. والطاعة واجبة على الجميع.. هذه المرة وجد ما يقوله؛ لذلك جلس معهم اليوم في حماس متحينًا الفرصة. بدأ الحوار السياسي فقرر أن يصبر قليلا إلى أن يفرغ كل منهم ما في جوفه.. وقرر ألا يعادي منهم أحدا لكيلا

بحر الكتب
bahr.alktob

يعاديه أحد.. إلى أن بدأت الأصوات تهدأ والطعام يملأ أفواههم، خرجت جملته تقريرية صريحة واثقة:

- على فكرة يا ولاد.. فِرعون كان طيب!!

للحظات كان يمكنك أن تسمع صوت حركة الهواء في الغرفة بعد أن قال الأستاذ عبد الحميد جملته.. اختفى حتى صوت المضغ.. نظر إليه الجميع في دهشة، تابع هو بثقة:

- معلوم.. فِرعون كان طيب.

خرجت صيحات الاستنكار والاستفهام والسخرية من كل الأفواه في آن واحد.. لم يهزه ذلك بل على العكس؛ فقد كان يحفظ جيدا ما سيقوله، لم يحاول أن يقاطعهم إلى أن صاح الأستاذ حازم بصوته الحاد:

- استنوا شوية خلونا نفهم.. بتقول إيه يا أستاذ عبد الحميد؟

أجاب ببساطة:

- فِرعون كان طيب، وكان ديمقراطي، وكان مخلص لمصر!

سبق الأستاذ خليل الجميع في الكلام وهو يسأل:

- اشرح لنا إزاي بقى يا سيدي؟!

ابتسم في ثقة وهو يقول:

- أولا بابه كان مفتوح للشعب.. قابل سيدنا موسى وقعد يتكلم معاه زي ما إحنا بنتكلم.. ثانيا ما قتلوش هو وأخوه.. ثالثا وافق يعمل معاه مناظرة قدام الشعب كله.. رابعا قاد الجيش بنفسه لما

بحر الكتب
bahr.alktob

هجم على بني إسرائيل مع إنه كان ممكن يقعد في القصر معززًا مكرمًا.. فيه ملك ولا رئيس دلوقت ممكن يعمل كده؟

لم يضحك أحد، بل صمت الجميع وهم ينظرون إليه في دهشة، شجعه هذا على أن يتابع:

- فِرعون صاحب أول مناظرة في التاريخ!!

- أستغفر الله العظيم.

قالها الأستاذ عرابي وهو يهز رأسه في استياء.. بدأ يسرد الآيات التي تثبت أنه كان طاغية كافرًا.. أمَّن الأستاذ عبد الحميد على كلامه:

- صدق الله العظيم.. طبعا فِرعون كان كافر.. لكنه ماكانش ظالم.

انفجر الأستاذ وائل مدرس المواد الاجتماعية متحدثا عن أفعال فِرعون في بني إسرائيل.. ابتسم هو في حماس:

- ياريته كان خلَّص عليهم وساب بس سيدنا موسى وأخوه.. بذمتكو مش كان أحسن لنا وللعالم كله؟! الراجل كان عنده نظر.. كان عارف إنهم هيفسدوا في الأرض.. سياسي يا إخوانا.

ضحك الأستاذ حازم ساخرا:

- إيه التخريف اللي أنت بتقوله.. فِرعون كانت مشكلته إنه كان فاكر نفسه إله.. واللي كان عاوز يخلَّص عليهم دول كانوا المؤمنين.. يا راجل استغفر ربنا.

بحر الكتب
bahr.alktob

قاطعه في حدة:

- أستغفر ربنا على إيه؟! هو أنا كفرت؟ أنا بأقول لك أهه إنه كان كافر.. لكن كان طيب ومخلص وبيحب مصر.

تدخل الأستاذ وائل مرة أخرى:

- أنت عارف الفراعنة كان بيعملوا إيه في الشعب؟

هز رأسه في عناد وهو يقول:

- كانوا بيعملوا كل حاجة كويسة.. معابد وأهرامات وعلم وثقافة.. ما حدش عمل اللي عملوه.. ولو كان على السُّخْرة.. كان لازم يحصل كده.. إحنا شعب غنم ما نجيش غير بالعصاية.

هب وائل واقفا في استنكار:

- لا يا أستاذ عبد الحميد.. إحنا مش غنم.. اتكلم عن نفسك؛ أنت عارف إنك راجل خروف.. ماشي، أنت حر.. لكن إحنا مش غنم.

بدا على عبد الحميد الغضب وهو يقول:

- أنا خروف يا قليل الأدب!

ضحك الشاب وهو يقول في استفزاز:

- مش أنت من الغنم.. خلاص يبقى أنت خروف.

اشتعل الحوار؛ حتى إن عبد الحميد شعر أنه أخطأ.. بدأ وائل يهاجمه ويسخر منه وهو يدافع عن نفسه في غضب.. تصاعد الأمر إلى أن أنهاه وهو يغادر مقعده قائلا في احتقار:

بحر الكتب
bahr.alktob

- إنتو جيل ما لوش كبير.

أجابه وائل ساخرا:

- ماشي.. بس إحنا شايفين نفسنا بني آدمين.. مش غنم.

دفعه الأستاذ عبد الحميد بيده فأفلتت منه الصور التي كان يحملها.. نظر إليها وائل.. ضحك وهو يشير إلى صورة طريق الكباش:

- ودي بقى صورة عائلية؟!

انفجر الجميع في الضحك.. نهرهم الأستاذ حازم.. انطلق مبتعدا وهو يكاد يتعثر.. كان يشعر أنه أخطأ وهو في طريقه إلى الفصل.. لا سيما عندما استدعاه الناظر ليسأله عن رأيه في فِرعون.. وعن حكايته مع وائل.. تضاءل كعادته أمام الناظر.. قال له ببساطة:

- يا أفندم أنا قصدي إن إحنا ما بنجيش غير بالضرب على دماغنا.

ابتسم الناظر وهو يؤكد:

- عندك حق.. علشان كده أنت متحول للتحقيق.. وموقوف عن العمل لغاية ما نشوف حكايتك إيه.

غادر عبد الحميد المدرسة وهو يلعن لسانه.. تلفت حوله وهو يهمس:

- ما لك أنت ومال السياسة يا عبد الحميد؟!

عندما عاد إلى زوجته مبكرا.. بدا عليها الفزع.. فأخبرها برأيه

بحر الكتب
bahr.alktob

في فِرعون.. أراها الصور التي تحمل المعابد والأهرامات.. هزت رأسها في دهشة وهي تمصمص شفتيها:

- آه والله.. ده باينّه كان راجل جدع.. بس يعني أنت ما لك وما له يا عبد الحميد.. ده مات من زمان!!

هز كتفيه في تسليم وهو يتذكر ما جرَّه إلى طريق الكباش.. كان ينصت كالعادة إلى حوار الدكتور جلال مع أحد أصدقائه في المقهى بالأمس.. مثله مثل أغلب رواد المقهى من المسنين.. كانوا يعرفون أن الرجل يعتبر علامة في السياسة والتاريخ؛ فهو أستاذ في العلوم السياسية وصورته تُزين دائما العمود الذي يكتب فيه مقالاته.. باختصار كان مرجعا.. لكن عبد الحميد كان يخاف عادة من كلماته التي قد تذهب به إلى ما وراء الشمس حتى لمجرد سماعها؛ لذلك لم يكن يكرر ما يسمعه منه.. بل كان يقول لنفسه في تأنيب:

- ما لكش دعوة بيه يا عبد الحميد.. أكيد مسنود.

هذه المرة فقط أعجبه الكلام.. أدهشه في البداية أن يقول إن فِرعون كان طيبا.. لكنه عندما جلس يسمع حيثيات الرجل في طيبة فِرعون هز رأسه في سعادة واقتناع، كل ما قاله في حواره اليوم كان من حوار الدكتور جلال. كان يتوقع أن يواجَه بغضب المدرسين لا سيما الشباب الوقح، وقد حدث.. لكنه لم يتوقع أن يوقَف عن العمل ويُحال إلى التحقيق؛ لذلك تنهد وهو يقول: الله يخرب بيتك يا دكتور جلال أنت وفِرعون.

في اليوم التالي كان يغادر غرفة التحقيق ورأسه في الأرض.. مزَّق الورقة التي كان قد أعدها ليعدد فيها محاسن فِرعون.. فلم يسأله عنه

بحر الكتب
bahr.alktob

أحد.. سألوه هو ووائل سؤالا واحدا عن حدوث مشادة بينهما في غرفة المدرسين فلم ينكرا.. جاء القرار سريعا بلفت نظر وخصم ثلاثة أيام من الراتب.. ثار وائل وهو يناقش المحقق الذي بدا عليه أنه لن يسمع كلمة واحدة.. غادر غاضبا وهو يعلن أنه سيتقدم بتظلم في الوزارة غدا.. التفت المحقق إلى عبد الحميد وهو يسأله:

- هتتظلم أنت كمان يا أستاذ؟

هز عبد الحميد رأسه نافيا:

- اللي تشوفه سيادتك يا فندم.

في المساء ذهب إلى المقهى مهموما.. كان حزنه على أول جزاء له في ملفه.. قرر ألا يتحدث عن فِرعون في المدرسة مرة أخرى..لكنه بالتأكيد لن يأخذ جزاء إذا عرض ذلك على أصدقائه في المقهى؛ لذلك جمع صوره وأخذها معه وهو يتمنى ألا يكون الدكتور جلال موجودا ليخرج عليهم بنظريته وهو يدعي أنها من بنات أفكاره التي كانوا جميعا يصفونها بأنها عاقرا..عندما رأى الدكتور جلال يجلس في وسط لفيف من أصدقائه قرر تغيير خطته. لم يجد أمامه سوى أن يشاركه في الحديث عن مزايا فِرعون.. وجده كالمعتاد يتحدث والكل ينصت باهتمام..اقترب منهم وجلس في هدوء لكيلا يقاطعه.. قرر أن ينتظر إلى أن ينتهي..كان يريد أن يحكي له ما حدث ليسمع منه كلمة تشجيع، أو ليصفه بعضهم لمرة واحدة في حياته بأنه أصبح ثوريا.. غابت ابتسامته عندما بدأ ينصت إلى الحوار. كان الدكتور جلال يضحك وهو يحكي للجالسين عن حواره مع صديق من تيار آخر.. يصفه بالسطحية والضحالة لدرجة

بحر الكتب
bahr.alktob

أنه كان يهز رأسه على كل ما يقال بفهم وثقة، احمر وجهه من الضحك وهو يقول:

- المهم الحمار مشي وهو مصدق إن فِرعون كان طيب.

نظر إليه عبد الحميد في دهشة للحظات، وجده ينظر في ساعته ويقوم فجأة.. جرى وراءه واستوقفه عند باب المقهى وهو يسأله بصوت خافت:

- يعني فِرعون ما كانش طيب يا دكتور؟

ضحك الرجل ساخرا وهو يقول:

- فِرعون كان ابن ستين كلب يا عبد الحميد.

لم يعد عبد الحميد إلى مكانه.. بل غادر متثاقلا وهو يتذكر الجزاء الذي في ملفه.. دخل بيته وجلس إلى جوار زوجته التي كانت تجلس كالصنم أمام التلفاز.. أراها كل الصور التي يحملها فهزت رأسها موافِقة دون أن تنظر إليه وهو يقول:

- الدكتور جلال غيّر كلامه.. بس وحياتك.. فِرعون كان طيب يا عديلة!!

بحر الكتب
bahr.alktob

مسرحية من فصل واحد «متكرر»!!

قبل رفع الستار.. صوت جهوري:

- «مَن كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر».

ملحوظة: تتم مراجعة الجملة والتأكد إذا ما كانت حديثا شريفا أم آية قرآنية ويوضع المناسب قبلها وبعدها.

مشهد الختام

يُفتح الستار على غرفة الحجز في قسم شرطة حي الغلابة. غرفة الحجز ممتلئة عن آخرها، لغط وضوضاء، الكل يتكلم، الكلام غير واضح فلا يفهمه أحد.. المكان رائحته كريهة.

ملحوظة: «يتم نشر رائحة كريهة في أرجاء المسرح ليعيش الجمهور الجو».

في ركن الحجز توجد قطعة قماش ممزقة تتدلى من أعلى (كأنها ستارة).. خلفها صنبور يرتفع عن الأرض مترا واحدا ودلوان هما

بحر الكتب
bahr.alktob

مصدر الرائحة الكريهة، في الركن الآخر يجلس ثلاثة مساجين على الأرض متلاصقين وقد احتضنوا أرجلهم، يرتدون ملابس رمادية متشابهة. يبدو على وجوههم الخوف الشديد.. يلتفت إليهم أحد المساجين ويصفع أحدهم على قفاه بقسوة.. يحاول الآخران الاعتراض.. ينهال عليهما المسجون بمساعدة اثنين آخرين ضربا.. الجميع ينظر إليهم بلا مبالاة.. يسمع باب الحجز وهو يُفتح فيعود المساجين إلى مكانهم سريعا.

غرفة الحجز لها باب ضيق يسمح بمرور شخص واحد بصعوبة وهو محني الرأس. يدخل منها ضابط ومعه اثنان من المخبرين يحملان بنادق يصوبانها نحو كل المساجين في حركة دائرية.

يقوم واحد من مساجين الركن موجها كلامه للضابط:

- يافندم إحنا بننضرب وبنتهان.

ينظر إليه الضابط باحتقار.. يشير إليه بإصبع واحد:

- هششششششششش.. أنت بالذات ما تتحركش من مكانك.

صمت للحظة ثم يتابع:

- ياخايب.

يعود المسجون إلى مكانه ويجلس صامتا!!

الضابط (غاضبا):

- فين الأخ اللي عامل نفسه مثقف؟

يلتفت إلى رجل سمين تبدو عليه البلاهة:

بحر الكتب
bahr.alktob

- أنت؟

- لا والله يا باشا.. أنا حيَا الله ممسوك في خناقة.

- آه أنت بالونة البلطجي.. طيب تعالَ على جنب.

- وأنت؟

يجيبه الشاب الضئيل الجسد وهو يُخفي سيجارة الحشيش:

- مثقف إيه ياباشا.. أنا عبده النشال.

يقف الضابط في حيرة، ينظر إلى الشاب الجالس في ركن الزنزانة مرتديا نظارة طبية:

- أنت اسمك إيه ياله؟

ينظر إليه الشاب في تحدٍّ:

- سالم أبو الخير.. صحفي.

- يبقى أنت يا خفيف.. قوم فِز.

يتجاهله سالم وهو ينظر إلى سقف الزنزانة، تمتد يد أحد المخبرين ليصفعه على وجهه.. ثم يجذبه من ياقة قميصه في عنف وهو يقول:

- مش الباشا قال لك قوم.

يحاول سالم التخلص من قبضته بلا فائدة فيصيح في غضب:

- نَزل إيدك.. أنتو فاكرين نفسكو إيه؟!

بحر الكتب
bahr.alktob

يضحك الضابط بينما الصفعات تتوالى على وجه الصحفي الشاب:

- إحنا مش فاكرين حاجة.. إحنا الحكومة يا حمار.

يجلس الشاب القرفصاء على الأرض واضعا رأسه بين كفيه محاولا تفادي الصفعات المتتالية وهو يصيح:

- الضرب مش هيخوفني.. بكرة أطلع من هنا وأفضحكو.

يصوب الضابط البندقية إلى رأسه وهو يضحك:

- من هنا لبكرة تكون اتعلمت الأدب.

- والله لو موّتني ولا هيفرق معايا.

يصمت الضابط.. ويتوقف الضرب فيخيم السكون على المسرح.

ينفخ الضابط في أسى وهو يقول بعد تفكير:

- ما إحنا مش هنموتك.. إحنا هنفضحك قبل ما تفضحنا!!

يشير برأسه إلى المخبرين.. يتحركان في وقت واحد ويجران سالم خلف الستارة.. تعلو صرخاته من خلف الستارة:

- حرام عليكو.. يا كفرة.. يا كفرة!!

المساجين يجلسون في صمت تام.. مساجين الركن الثلاثة يبتسمون في شماتة، يقوم أحدهم صارخا:

- شوفتو بقى..مش إحنا بس.. تُسكته صفعة على وجهه من بالونة البلطجي، ينظر إليه الضابط ضاحكا في سخرية.. يختفي

بحر الكتب
bahr.alktob

صوت سالم ولا يبقى منه إلا أنين ونحيب متقطع.. ينقلب أحد الدلوين مُسيلا سائلا أصفر على خشبة المسرح.. فتزداد الرائحة الكريهة انبعاثا.. يخرج المخبران وهما يربطان سرواليهما.. يلتفت الضابط إلى كل المساجين وهو يصرخ في جنون:

- قولوا لكل الناس اللي في الحتة لما تخرجوا من هنا.. البلد فيها قانون.. الحرامي بيتسجن والقاتل بيتشنق.. أما اللي يتكلم على أسياده فده بقى...

يحرك يده بحركة معناها مفهوم وهو يومئ برأسه في اتجاه الستارة.

(ستار)

المشهد الثاني

ظلام تام يخيم على المسرح.. يُسلَّط ضوء خافت على سالم وهو يَخرج من خلف الستار.. يمشي منكس الرأس.. يجلس القرفصاء محتضنا ركبتيه إلى جوار الحائط وهو يبكي في صمت، يقترب منه الشيخ درويش؛ وهو شحاذ أعمى يرتدي جبة وقفطانًا ونظارة سوداء.. يتكلم كما لو كان مجذوبا:

- إلا ما أُكرهتم عليه يابني.. ولا يهمك.

- وإحنا ليه نسكت على كده يا عم الشيخ؟

- أنت ماسكتش يابني.. بس كان في إيدك إيه.

بحر الكتب
bahr.alktob

يضحك بالونة وهو يقول:

- ياريت كان في إيده يا شيخ درويش.. كانت هانت.. ها ها.

تتعالى الضحكات من المساجين (ومن بعض المتفرجين أيضا)، يصرخ سالم موجِّها كلامه لكل من ضحك فوق أو أمام خشبة المسرح:

- أنتو بتضحكوا على إيه؟ اللي بيجرَى ده ممكن يجرَى لأي واحد منكو.. ترضوا إن ده يحصل لكو؟

يُنكس الجميع رءوسهم في استسلام ويُمصمصون شفاههم..

ينظر إليهم سالم في دهشة:

- إيه ماعندكوش دم؟

يجيبه عبده النشال وهو يأخذ نَفَسا عميقا من سيجارته:

- لأ عندنا دم بس مش عاوزينه يسيح.

يصمت سالم قليلا:

- بكرة يعملوا كده فيكو.. بس بعد بكره هيعملوها في حريمكو.

ترتفع الرءوس كلها فجأة.. يبدو على الجميع أنهم يتخيلون.. بعضهم يهز رأسه رافضا، والبعض يغمض عينيه في جزع.

يأتي صوت الشيخ درويش:

- زي ما عملوا في مرات الواد محمود قدام عنيه علشان يِقِر.

ترتفع الأصوات بالرفض والسباب والدعاء.

بحر الكتب
bahr.alktob

يصيح سالم:

- لأ..مش عاوزين كلام ولا دوشة.

أصوات:

- طيب نعمل إيه بس؟

- أنا أقول لكو نعمل إيه.

يلتفت إلى المتفرجين:

- وأنتو يارجالة.. اللي عاوز يساعدنا يطلع لنا (يصعد سبعة شباب من المتفرجين إلى خشبة المسرح)، يظلم المسرح مرة أخرى ويضيء على حلقة في المنتصف.. الكل متجمع حول سالم، عدا المساجين الثلاثة الذين لا يزالون قابعين في الركن.. سالم يمسك بقطعة طباشير يخطط بها على الأرض وهو يهمس بكلام غير مسموع.. تعلو همهمات حائرة.

بعد دقائق يأتي صوت عبده النشال:

- لأ لأ.. حتى لو عرفنا نعمل كده هيجيبونا من بيوتنا وهنتنفخ.

يهز سالم رأسه بثقة:

- لأ طبعا..هيشيلوا المأمور والضباط اللي في القسم.. وهيِكْفوا على الخبر ماجور.. هيخافوا من الفضيحة.

الشيخ درويش:

- والمأمور الجديد هيبقى عارف إن رجالة قسم الغلابة مش هفأ.. وهيلم نفسه معانا علشان مايحصلش معاه زي ما حصل للي قبله.

بحر الكتب
bahr.alktob

ترتفع الهمهمات مرة أخرى بين مؤيد ومعارض.. يعلو صوت الشيخ درويش:

- يلَّا.. يا طابت يا اتنين عور.. وأنا كده كده الاتنين عندي عور.. أنا معاك يا أستاذ.

يضحك الجميع.. ثم تعلو الأصوات متتالية:

- وأنا معاك يا أستاذ.. وأنا معاك يا أستاذ.

يقوم واحد من المساجين الثلاثة وهو يصرخ:

- وإحنا معاكو يا أستاذ.

يلتفت المساجين إليه في حركة جماعية.. ينظرون إليه بغضب واحتقار فينزوي في الركن مرة أخرى.

المشهد الثالث

حجرة الحجز.. يفتح الباب ويدخل الضابط ومعه نفس المخبرين.. يغلق العسكري الباب من الخارج.

الضابط ينظر لسالم في سخرية:

- أنت ياد أنت لسه ماحرمتش.. العساكر بيقولوا إنك من أول النهار نازل شتيمة في أسيادك وعامل هيصة.

ينظر إليه سالم:

- دول أسياد الكلاب اللي زيك أنت واللي معاك.

يبدو على الضابط الغضب الشديد وهو يصيح:

بحر الكتب
bahr.alktob

- ده الحكاية عجبتك بقى.. ماشي.. بس اتوصوا بيه النهاردة يا رجالة.. واللي عاوز يخرج من الحجز النهاردة يدخل يساعد الرجالة في الواجب بتاع الأستاذ.

يندهش سالم وهو يرى بعض المساجين الذين شاركوهم خطة الأمس يترددون ويبدو عليهم أنهم يفكرون في الأمر.. يشعر الشيخ درويش بما يدور في رءوس المساجين فيصيح وهو يضحك:

- يا باشا اللي هيعمل كده مننا هتطلع عليه سمعة لما يخرج ومحدش هيعرف ده خرج لا مؤاخذة علشان عامل ولا علشان معمول.

- اخرس أنت يا شيخ زفت.. ها يا رجالة؟

- يا باشا وحياة دقني دية يروحوا ورا الشمس أحسن لهم ما يروحوا ورا الستارة.. دي هتبقى فضيحة.

الضابط (ينظر إلى الشيخ درويش بغيظ):

- خلاص يلّا يارجالة. يبدأ المخبرون في جرّ سالم خلف الستارة.. سالم يقاوم ويصرخ، الجميع ساكن تماما كما حدث في اليوم السابق.. الضابط يشعل سيجارته في لا مبالاة.. الشيخ الأعمى ينصت جيدا.. في لحظة يصرخ سالم:

- دلوقت يا رجالة.

يهجم بعض المساجين على المخبرين خلف الستار.. يلتفت الآخرون تجاه الضابط الذي يمد يده إلى مسدسه فلا يجده.. عبده

بحر الكتب
bahr.alktob

النشال يمسك المسدس في يده ويقلبه يمينا ويسارا.. لا أحد يقترب من الضابط الذي يصرخ:

- افتح الباب ياعسكري.. افتح الباب!!

يفتح العسكري الباب من الخارج في هلع.. يجذب واحد من المساجين الباب فجأة ويقفز آخر ليجذب البندقية من يد العسكري ثم يجذب العسكري نفسه إلى داخل الزنزانة. يندفع بالونة ليحول بجسده الضخم بين الضابط وبين بوابة الزنزانة.يخرج المخبران من خلف الستار مع زوج من المساجين وسراويلهم متدلية.. وسالم معهم يرتدي ملابسه. يقف الضابط في حيرة وهو يرى مسدسه وبندقية العسكري مصوبَيْن إليه وبابَ الزنزانة مفتوحًا فيبدو عليه الذهول كما يبدو على الجميع حتى المنتصرين، ترتفع صرخة أحد المساجين:

- الباب مفتوح.. يلَّا نهرااااب.

يسود الهرج فجأة والكل يجري تجاه باب الزنزانة.. أقربهم إلى الباب بالونة البلطجي.. يصرخ سالم:

- بالراحة.. الخطة.. الخطة!!

يتدافعون بسرعة فيسقط بالونة بظهره في مدخل الزنزانة بظهره نصف الجالس. وينحشر جسده الضخم في الباب.. مقعدته خارج الباب لكن جسده بالكامل محشور في «الحلق». المساجين يتدافعون للخروج لكنه يسد الفراغ كاملا، يجذبونه ويدفعونه بأيديهم وأرجلهم وأكتافهم وهو يصرخ من الألم بلا فائدة.المساجين يصرخون في

بحر الكتب
bahr.alktob

جنون، المتفرجون السبعة يحاولون النزول من على خشبة المسرح فيجدون أن السلم قد اختفى، مساجين الركن الثلاثة يضحكون في شماتة دون أن يتحركوا من مكانهم، الضابط والمخبران يقفون في ذهول وخوف، الشيخ درويش يصيح وهو يضحك ساخرا:

- فتحتوا الباب ومش عارفين تخرجوا يا ولاد العبيطة.. فتحتوا الباب ومش عارفين تخرجوا يا ولاد العبيطة.

الصراخ يتزايد.. طلقات تخرج من المسدس ومن البندقية. يتبعها سقوط أجساد.. (لن يعرف الجمهور مَن أطلقها ولا مَن سقط)، صراخ وعويل، وسالم يصيح:

الخطة.. الخطة!! والشيخ درويش يضحك وهو يسب ويبصق.. يتجمد المشهد على هذه الحال لدقائق.

المشهد الرابع

يندفع جسد بالونة إلى داخل المسرح مخليا الباب كالقذيفة.. تظهر من حلق الباب البيادة العسكرية الضخمة التي ركلته وساق قوية في داخل بنطلون «ميري» دون أن يظهر صاحبها، لكنها تظل معلقة في الهواء.. نعلها في وجه الجمهور.. تخرج لسانها للجميع ورباطها طويل لا نهائي.

يغلق الباب على كل من في الداخل.. يلتفت بعض المساجين في غضب في اتجاه الضابط والمخبرين.. ويلتفت بعضهم إلى سالم وهو يصيح كالمجذوب:

بحر الكتب
bahr.alktob

- الخطة.. الخطة!!

يتدافع المساجين ليأخذوا الأربعة خلف الستارة ويدخلون في تزاحم.. وتعلو الصرخات.. بينما الشيخ درويش يضحك بصوت عالٍ وهو يردد في جنون:

- يا ولاد الكاااااااالب!! (تسكته صفعة أو اثنتان من زملائه ومن المتفرجين الذين انضموا).

مشهد الختام

يُفتح الستار على غرفة الحجز في قسم شرطة حي الغلابة؛ غرفة الحجز ممتلئة عن آخرها.. لَغَط وضوضاء، الكل يتكلم، الكلام غير واضح فلا يفهمه أحد.. المكان رائحته كريهة.

ملحوظة: (يتم نشر رائحة كريهة في أرجاء المسرح ليعيش الجمهور الجو). في ركن الحجز توجد قطعة قماش ممزقة تتدلى من أعلى (كأنها ستارة)، خلفها صنبور يرتفع عن الأرض مترًا واحدًا ودِلوان هما مصدر الرائحة الكريهة، المتفرجون السبعة يجلسون سويا، يبكون ويلعنون بعضهم، ويلعنون سالم والشيخ درويش وبقية المساجين، يجلس مساجين الركن الثلاثة الجدد (الضابط والمخبرَان الذين تسببوا بغبائهم في آخر عصيان)، وقد ارتدوا الملابس الرمادية المتشابهة، مكان الثلاثة القدامى الذين اختفوا من المشهد، يبدو على وجوههم الخوف الشديد.. يلتفت إليهم أحد المساجين ويصفع الضابط على قفاه بقسوة.. يحاول الآخران الاعتراض.. ينهال عليهم المسجون بمساعدة اثنين آخرين ضربا..

بحر الكتب
bahr.alktob

الجميع ينظر إليهم بلا مبالاة.. يسمع باب الحجز وهو يُفتح فيعود المساجين إلى مكانهم سريعا.. تتجمد حركة الجميع!

(ستار)

ملحوظة: تتم مراجعة المسرحية بواسطة مؤلف مسرحي محترف لعمل الإصلاحات المطلوبة، ويوضع اسمه عليها كمؤلف ثم يتم عرض المسرحية على مسرح مركز شباب الغلابة يوميا لمدة شهرين.. ويتم حبس الجمهور داخل المسرح في الظلام لمدة ساعة بعد العرض يوميا وتكليف بقية رجالنا الذين لم يشاركوا في العرض والموجودين وسط المشاهدين بضرب مَن يعترض.. انتهى!! وفقكم اللهُ جميعا.. مع تحياتي.

حمزة الجيار

مدير جهاز الأمن في الوزارة

ومأمـور قسم الغلابة سابقًا

بحر الكتب
bahr.alktob

آدم.. وولده

لا أحد يستطيع أن يعرف مقدار سعادة الأستاذ آدم في ذلك اليوم إلا إذا تجول داخل صدره لبعض الوقت، فمشاعره تساوي حصيلة أيام طفولته وصباه.. وعدد الدموع التي ذرفها لسببٍ بعينه وهي كثيرة.. وعدد المرات التي شرد خلالها وهو يفكر في أنه لم يفعلها أبدا من قبل. لن يدرك فرحته صديقه الذي أعطاه «جمعية» بخمسمائة جنيه في أول شهورها، ولا زوجته التي ترتدي ملابسها بناء على تعليماته، ولا ولده الذي أتم عامه الثاني عشر ونجح في الشهادة الابتدائية والذي سيذهب معهما لشراء الحلم بعد قليل.

سيعود إلى بيته سعيدا وهو يمسك بجيبه الذي يحتوي على النقود، يقبل الصغير الذي لم يخبره أحد عن المفاجأة التي أعدها له.. وسيشتري له دراجة سباقات متعددة السرعات كالتي عاش يحلم بها سنوات وسنوات؛ والتي ظن أن أباه سيشتري له مثلها منذ ثلاثين عاما عندما نجح في الابتدائية.. لكن الأب كان قد أعد له مفاجأة من نوع آخر.. اشترى له ساعة أنيقة سعرها يقترب من سعر الدراجة التي كان يحلم بها آدم.. ليلتها نام الأب غاضبا لأن ولده

بحر الكتب
bahr.alktob

لم يقدر هديته القيمة.. ونام آدم باكيا لأنه صارح أباه بأنه كان يحلم بدراجة متعددة السرعات.. رغم أن أباه لم يسمح له بركوب دراجة سوى تلك الصغيرة التي استخدمها في طفولته المبكرة. والتي لم تُعلمه أن يتزن عليها لوجود السنّادات التي تحفظ توازنها بغض النظر عما يفعله راكبها، وأقسم عليه غاضبا ألا يستأجر دراجة بغير سنادات مرة أخرى ليتعلم عليها. بعد أن انتهت محاولته الأولى منفردا بسقوطه على بُعد أمتار قليلة من عجلات «أوتوبيس» النقل العام الضخمة، وبآلام في جسده الذي كان لا يزال غضا وقتها من جرَّاء الجروح التي حفرت على ركبتيه وكوعيه.. ومن آثار «علقة» ساخنة أخذها من أبيه، الذي دفع بدوره تعويضا عن الخسائر لصاحب الدراجة التي تحطمت تحت عجلات الأوتوبيس.

سَيَتفنن آدم في إضافة «إكسسوارات» طالما أعجبته في الدراجات التي كان يتفحصها جيدا؛ مصباح أمامي يعمل بالدينامو للسير ليلا، وسارينة عالية تعمل بالبطارية، وشبكة أمامية فيها جزء لزجاجة الماء البلاستيكية الأنيقة، وسيأخذ ولده وزوجته إلى الحديقة.. عند الممر الممهد سيبدأ في تعليمه التوازن على الدراجة بلا سنادات.. ويردد الكلام الذي كان ينصت له جيدا عندما يسمع أحدا يُعلم صغيره كيف يتزن على دراجة: الرأس مرفوع، العينان تنظران إلى الأمام، لا تنظر إلى قدميك، اجعل يديك خفيفتين على المقود، وجّهه دون أن تتشبث به، بدّل بقدميك سويا في آن واحد.. وسيضيف الكلمة التي أعدها جيدا لذلك اليوم: يجب أن تتعلم أن تقود الدراجة وحدك، بلا عون أو سنّادات؛ لأنك كبرت.

سيَسقط ولده على الأرض عدة مرات.. وسيُخرج من جيبه

بحر الكتب
bahr.alktob

زجاجة المطهر والقطن الذي لم ينسَ أن يشتريه ليطهر جروحه، وهو يشجعه على المحاولة مرة أخرى.. عندما ينطلق الصغير وحده لأول مرة سيجلس على الأرض ليتأمله من أسفل في سعادة.. وسيلمح شعره الذي يتطاير بفعل الهواء فيأخذ نفسا عميقا وهو يضحك، كأن جسده هو الذي انطلق بدراجته للمرة الأولى، ستتعالى صيحاته أعلى من صيحات ولده، ويقرر أن يسمح له من الغد بالذهاب بدراجته إلى الحديقة القريبة، وأن يخرج بها يوميا لمدة ساعة إلى أن يجيد القيادة.

في المساء سينام آدم غاضبا لأن ولده لم يقدر هديته القيمة، وسينام الصغير باكيا من آلام في جسده الذي ما زال غضًّا.. من جرَّاء الجروح التي حُفرت على ركبتيه وكوعيه، ولأنه صارح أباه بأنه كان يحلم بشراء جهاز «بلاي ستاشين» كالذي يمتلكه معظم أصدقائه.

بحر الكتب
bahr.alktob

عاهرة المدير

عاهرة المدير!!

لم أشعر بنفسي وأنا أكتبها على الورقة الملقاة أمامي في وسط شرودي، لكنني وجدتها أمامي بخط مرتعش. هذا اللقب المقيت الذي لم أعترف لنفسي يوما أن معظم مَن في الإدارة يطلقونه عليَّ.. والذي أخبرني به سيد الساعي منذ سنوات طويلة.. ضحكت في عصبية وأنا أمزق الورقة.. كنت دائما عندما أسمع همساتهم أو أرى نظراتهم أُتمتم بشماتة: موتوا بغيظكم؛ فأنا أعرف أنني لست عاهرة المدير.. لكنني المدير نفسه.. أنا عيناه وأذناه ورأسه أيها الحمقى.. أنا المدير!!

اليوم لا أستطيع الشماتة؛ فمعظم مَن في الإدارة شامتون فيَّ.. يوم يبدو لي أسود ولا شك.. أخذت رشفة كبيرة من كوب الشاي الداكن الذي أمامي.. لَسَعت فمي.. فأل آخر في هذا الصباح الثقيل. أجلس في انتظار المدير الجديد.. أسترجع ذكرياتي مع كل من دخلوا هذا المكتب من قبله منذ تعييني هنا.. تسعة مديرين بالتمام والكمال.. قصتي معهم جميعا تكاد تكون واحدة باختلاف

بحر الكتب
bahr.alktob

بعض التفاصيل.. كنت أدخل إليهم في الصباح الباكر.. قبل أن يبدأ يوم العمل.. أُحضر ملفاتي وتمتد يدي لأضيء المصباح الأحمر.. أعرف جيدا ما يريدونه، لا يحتاجون طلبا أو سؤالا.. أخرج بعد قليل فأرى نظرات الشك والاتهام في عيون كل الواقفين في الخارج.. لكني لا أهتم؛ فما أفعله رغم كل ما يُقال عني كان جزءا أصيلا من عملي.. لا أهتم باللقب الذي أعرف أنه انتشر بين كل مَن يعملون في الإدارة.. ولا بالكراهية التي تنتشر أكثر.

كنت أحمل في جيبي دائما ورقة صغيرة أُسجل فيها ما يفيد في لقاء الصباح. كل شيء مهما كان صغيرا قد يكون له قيمة أكبر.. الكفاءة تقتضي أن تعرف ما يريد أن يسمعه كل منهم: سميرة على علاقة بالأستاذ سعيد مدير الحسابات.. تأتي معه في سيارته صباحا.. وسمعت أن زوجته تركت المنزل غاضبة.. مدام زينب لم تُسلم الجمعية للأستاذة منى في الميعاد.. الأستاذ حمدي قال (لا مؤاخذة يعني يافندم): ربنا يحرق حضرتك بجاز.. المهندس محمود أرسل شكوى في حضرتك إلى الوزارة يقول فيها إنك عينت ابن أختك بمرتب كبير.. و... و... لا أستطيع أن أُحصي ما كنت أقوله لهم في الصباح الباكر.. ولا أن أُحصي النتائج لكني أذكر بعضها: سميرة وهي تحسبن في وجهي قبل أن تترك الإدارة بعد أن أصبحت سيرتها على كل لسان، وحمدي وهو يتقدم باستقالته بعد أن أكد للمدير أنه قالها لكنه أضاف أنه الأنسب لسيادة المدير أن يكون الجاز «وسخ»، ومحمود وهو يلملم أوراقه بعد نقله من الإدارة إلى أحد فروع الصعيد!!

محمود صادق العباسي، ثلاثة وعشرون عاما، تخرج في

بحر الكتب
bahr.alktob

هندسة عين شمس بامتياز، طموحه بلا حدود، وكبرياؤه يفوق طموحه.. أعزب.. يملك سيارة متوسطة.. يسكن في المقطم.. وَقِح وجريء.. أخطاؤه على مدى العام الماضي تكاد تكون معدومة.. إلا أن صداقاته مع كل مَن فوقه تكاد تكون معدومة أيضا؛ فهو تشاجر مع مدير الإدارة الهندسية لأنه رفض التوقيع على المواصفات الخاصة بالمشروع الأخير رغم أن الرجل طلب منه ذلك بمنتهى الأدب، ثم بمنتهى الاستعطاف، ثم بمنتهى الغضب.. لكنه لم يوقع.. وأعد تقريرا يحتوي على كل عيوب المشروع، لكنه لم يقدمه لأن مدير الإدارة لحقه به قبل أن يصل إلى المدير وطلب منه بمنتهى الغضب، ثم بمنتهى الأدب، ثم بمنتهى الاستعطاف ألا يعطيها له.. وافق محمود بعد أن وقّع بنفسه على المحضر الجديد الذي رُفض فيه استلام المشروع. وتشاجر مع المهندس فوزي الذي كلفه بعمل رسم هندسي يخص مشروعا آخر ثم قدمه للمدير باسمه دون أن يذكر فيه اسم محمود.. وتشاجر مع زميل له عندما لاحظ أن الملفات تتكوم فوق مكتبه، وأنه لا ينهيها إلا بعد لقاء مشبوه بينه وبين أصحاب الملفات.. حتى ذلك التاريخ كنت أحبه لسببين: الأول أنني كنت أستمتع بشجاراته معهم وأنا أراهم يقفون أمامه عاجزين؛ فأنا لا أحب الحال المائل.. والثاني لأنه لم يكن يهتم بإبلاغ المدير بمثل هذه الشجارات؛ كانت الأمور عنده تنتهي دائما بتصحيح الخطأ.. بينما أمسك أنا باقي الخيط.. كنت أجد فيه مصدرا جيدا للمعلومات الفنية التي لم أكن ملما بها، كان المدير ينظر إلي بمنتهى الدهشة والإعجاب وأنا أخبره بأن هناك خطأ في المواصفات الفنية أو في آليات استلام المشروع.. لذلك

بحر الكتب
bahr.alktob

لم أتمنَّ أن يرحل محمود بهذه السرعة.. لكنه أخطأ..أخطأ وكان لا بد أن يدفع الثمن.

كان ذلك منذ ما يقرب من عشرين عاما.. دخل عليَّ مكتبي بغضب وهو يسألني عن السبب في نقل المهندسة عبير من القسم الذي يعمل هو فيه إلى قسم آخر.. لحظتها أدركت أنني في مأزق؛ لا بد أن المدير الغبي أخبره بما قلته.. لم أكن أريد له ولا لها أذى.. لكنني في ذلك اليوم تحديدا لم أجد ما أقوله في لقاء الصباح.. فقلت له إن محمود «واقع لشوشته» في حب عبير. سألني الرجل باهتمام:

- من أين عرفت؟

كنت قد سمعت من إحدى الموظفات أن محمود سيتقدم لخطبة عبير قريبا.. لكن ذلك لم يكن ساخنا بما يكفي ليقال في صباح خالٍ من الأخبار الساخنة.. خرَجت من فمي جملة واحدة لم أحسبها جيدا:

- سيرتهما على كل لسان!!

ما ذنبي فيما فعله المدير الأحمق؟! شاب في الإدارة يحب زميلته.. ما الغريب؟ لا بد أنه كان ينتظر أي غلطة لمحمود الذي كانت الشكاوى تتوالى ضده من كل مَن كانوا يكرهونه؛ وهم كثيرون.. لذلك نقلها إلى إدارة أخرى مباشرة بدعوى احتياج العمل.. لكن محمود عرف أنني المصدر.. لا أعرف حتى الآن هل استنتج أم أن الأحمق أخبره.. المهم أنني لم أُجب.. أعتقد أنه رأى

بحر الكتب
bahr.alktob

في ملامحي ما يشي بالحرج أو بالاعتراف؛ لذلك وقف ينظر إليَّ وقد احمر وجهه وهو يقول:

- كلهم حذروني منك.. لكني لم أتصور أنك بهذه الخسة.

كانت هذه هي غلطة محمود الكبرى.. لست نادما على ما فعلته معه.. مَن يقبل أن يقول له شاب يصغره بعشر سنوات إنه رجل خسيس.. أَتبعها بجملة ساخرة غاضبة مليئة بالكراهية:

- أنتَ بالفعل عاهرة المدير.

لم أعد أحب محمود ولا أستمتع بشجاراته.. أصبحت أكرهه.. ولأنني رجل طيب، جاءتني الفرصة لأنتقم منه عندما سمعته وهو يبدي دهشته من الراتب الذي عُين به مهندس جديد في الإدارة.. والذي يقترب من راتب مديره.. كنت أنا فقط أعرف أن هذا الشاب هو ابن شقيقة المدير العام.. وأنه عُين مستشارا للإدارة لكي يتخطى كل حواجز الرواتب الحكومية.. كل ما احتجته هو أن أُرسل سيد الساعي لمحمود ليسأله في براءة:

- المهندس تامر ابن أخت المدير وصل أم لا؟

تركت الباقي لمحمود.. راقبته وهو يجمع الأوراق التي تثبت أن الراتب يفوق كثيرا خبرة الشاب.. الحقيقة أنني سهلت عليه الحصول عليها.. أَعد مذكرته.. وفي الوقت المناسب في صباح ما دخلت إلى المدير وأخبرته بأن محمود يريد أن يتقدم بشكوى ضده وضد ابن أخته.. كما توقعت.. لم ينكر محمود، بل قال له في منتهى الوقاحة:

بحر الكتب
bahr.alktob

- أليس هذا هو الحق؟!

كسر حُقّك يا محمود.. المدير هو الذي يعرف الحق ويحدده هنا.. هذا ما لا تعرفه أنت والأغبياء من أمثالك.. أنا بمؤهلي المتوسط أصبحت مدير هذا المكتب بعد عامين فقط هنا.. وحافظت على منصبي إلى أن تجاوزت الخمسين.. أما أنت!! أنا تعبت كثيرا: كنت أعرف لمن أرتدي «البدلة» وربطة العنق الأنيقة لأنه يحب الأناقة.. ولمن أرتدي ملابس تدل على الفاقة لأنه يحب أن يشعر أنني مسكين.. متى أحسن هندامي ومتى أفسده.. متى يعلو صوتي ومتى ينخفض.. متى أصيح ومتى أهمس.. ومتى أبكي ومتى أتذلل.. ومتى أصمت تماما.

ما زلت أذكره وهو يلملم أشياءه من أجل الرحيل..يومها نظر إليَّ وعيناه تلمعان..ضحك باحتقار وهو يبصق في الأرض..ضحكت أنا أيضا في شماتة؛ فدفعني بعيدا وغادر. تمنيت ألا أراه مرة أخرى.. لكنه عاد.. عاد بقرار تعيينه مديرا للهيئة.. عندما وصلني القرار يتصدره اسمه كدت أسقط ميتا، كذَّبت عينيَّ ثم كذَّبت ذاكرتي.. اتصلت بصديق في الوزارة فأكد لي في ثقة:

- المهندس محمود.. ألا تذكره؟ كان يعمل عندكم في الإدارة منذ سنوات ونُقل إلى الصعيد!

هكذا تأكدَت الحقيقة.. محمود عاد لي والانتقام وشيك.. أنا الآن في انتظاره؛ فقرار استلامه للعمل يبدأ من اليوم.. يوم كئيب في شهر كئيب في عام كئيب.

بدأت ألملم أشيائي في صندوق كبير، خبأته تحت المكتب؛

بحر الكتب
bahr.alktob

لا أريد أن يراه أحد.. لن أحتمل أي تعليق أو سخرية. نظرت إلى الساعة في ترقب.. دخل هو بقامته المفرودة.. تراقصت على شفتيه ابتسامة ساخرة عندما رآني.. لم يُلقِ عليَّ السلام.. بل فتح الباب ودخل.. سقطتُ على الكرسي.. أعرف أنه سيطلبني بعد قليل.. بدأت في تحضير كلماتي.. أنا عبد المأمور.. ما أفعله كان بأوامر المديرين.. لم أقصد أن أؤذي أحدا لكني كنت أحافظ على أكل عيشي.. أنا لم أتسبب في نقلك بل فعلها كل مَن عاديتهم وهاجموك عندما كان اسمك يُذكر.. هل هذا أفضل ما يقال؟ لا أعتقد؛ أمثال محمود لا يحبون المسكنة.. عليَّ أن أبدو قويا.. أعتذر له وأخبره أنني تغيرت بعد رحيله، وليسأل عني .. لكنه إذا سأل سيعرف أنني كاذب.. فأنا لم أتغير كثيرا.. لكني مستعد للتغيير.. فليأمرني ويرى.

أفقت على رنين جرسه؛ إذن فهو يطلبني.. فردت قامتي وعدلت هندامي، تحركت متثاقلا في اتجاه مكتبه. كانت قدماي تحملانني بصعوبة وأنا أتصبب عرقا غزيرا.. وقفت قبيل الباب مفكرا للحظة.. تراجعت سريعا ساحبا الملف الموضوع على مكتبي.. نظر إليَّ في صمت ثم علا صوته فجأة:

- ما أخبارك يا عباس؟

أجبته بصوت منخفض:

- بخير سيادتك يا فندم.. الناس كلها سعيدة بقدومك.. سمعت فقط المهندسة سميحة تقول إنها كانت دفعتك في الكلية.. وإنك كنت...

بحر الكتب
bahr.alktob

قاطعني ساخرًا:

- أخبارك تعني صحتك يا عباس.. وليست أخبار الناس.

نظرت إليه في حرج.

كرَّر السؤال:

- ما أخبارك يا عباس؟

مددت يدي بالملف الذي كنت أحمله وأنا أقول بصوت أعلى من السابق:

- الحمد لله يا فندم.. لكن هناك شيئا واحدًا يضايقني.

سألني في ترقب:

- وما هو؟

أجبته بتردد:

- خائف سعادتك تكون غاضبا مني.. عفا الله عما سلف يافندم.

ابتسم ساخرا مرة أخرى:

- أنت فاكر؟

ابتلعت ريقي وأنا أقول:

- فاكر يا فندم.. لكن كنت أريد أن أقول لك شيئا واحدا وافصلني بعدها لو شئت.

- قل يا عباس.

بحر الكتب
bahr.alktob

- أنا أحبك يا باشمهندس.. أريد أن أصحح غلطتي في حقك.. أخلصت نيتي لله في هذا الموضوع؛ لذلك وَقَعت في يدي بالأمس أوراق مهمة. هناك أربعة من المهندسين في الإدارة تقدموا بشكوى ضدك عند وكيل الوزارة.. يقولون إنهم أقدم منك، وإنك لا تستحق المنصب.

نظر إليَّ بغضب، حاول أن يقاطعني لكنني تجاهلته.. كنت أعرف أن هذا هو آخر أمل لي لأظل في مكاني.. واصلت:

- هذا الملف فيه تاريخهم بالكامل.. كلهم عندهم جزاءات قديمة تمنع ترقيتهم.. سيادة وكيل الوزارة كان مدير هذه المصلحة وأنا أعرفه جيدا.. مَن سيقدم له الأوراق أولا سيعتبر عنده صاحب الحق.. وأنا لا أريد سوى الحق.. خذ هذا الملف واتصل به الآن.. سيعرف أنك مسيطر، وأنك صاحب الحق، غالبا سيطردهم من مكتبه عندما يصلون الآن.. ثم افصلني بعد ذلك.

أخذ مني الملف في تردد، نظر فيه مندهشا. كنت قد وضعت فيه عصارة خبرتي: معلومات شخصية وتواريخ ومخالفات وجزاءات وأخطاء أخرى لم تُسجل تكفي لإسكاتهم تماما.. هز رأسه مستنكرا شيئا ما وهو يقول:

- اذهب إلى مكتبك يا عباس.

فتحت الباب وخرجت في نصف ارتياح؛ حصاد السنين يقول إنه كان يستنكر ما سيفعله وليس ما فعلته أنا. لم أترك له فرصة لينفرد بنفسه، اتصلت بمكتب وكيل الوزارة وحولت له المكالمة.. لم أخبره أنني المتصل بل قلت له في عجل:

بحر الكتب
bahr.alktob

- وكيل الوزارة على التليفون يا فندم.

أغلقت الخط من عندي قبل أن يسألني عن أي شيء.. تنهدت مبتسما.. الآن سيحادثه، ويجب أن يجد ما يقوله له في هذا الصباح. جلست على مكتبي أراقب النظرات الشامتة التي تحولت إلى حائرة في منتصف اليوم.. لملمتُ نصف أوراقي وتركت النصف الآخر.. متمنيا أن يتأخر لقاؤنا حتى الغد؛ ففي الصباح دائما يكون هناك.. كلام جديد!!

بحر الكتب
bahr.alktob

أحلام الغرف المعدنية

حجرة لا تتعدى مساحتها المترين.. جدرانها معدنية باردة.. ومرآتها لا تلمع مهما لمّعها هو.. وباب قاس يُفتح ويُغلق فجأة كما لو كان مقصلة!!

كان هذا هو عالمه الغني الرحب اللا نهائي الاتساع.. هنا مملكته الكبيرة التي يطلق فيها العنان لأحلامه لتذهب به أينما يريد.. على عكس الحجرة التي يعيش فيها مع أمه وإخوته..حيث كل شيء حقيقي: بكاء الأطفال وشكاوى الأم ومشاجرات الجيران.. لا مجال للخيال.. إذا أغلق عينيه ليحلم سيفتحهما خليط من رائحة المجاري ورائحة الطعام النفاذة الذي يطهى في ذلك الدور القابع تحت الأرض. ذلك الخليط الذي كان يكرهه لأنه يولّد لديه ميلا شديدا إلى القيء.

يجلس على الكرسي الذي طالما جلس عليه أبوه إلى أن مات عليه.. تتعلق عيناه بلوحة الأرقام، يبتسم وهو يبدأ لعبة المقامرة الصباحية، يغمض عينيه ويختار الرقم الذي سيضيء في المرة القادمة. يهمس:

بحر الكتب
bahr.alktob

- الثالث. ينتظر قليلا أو كثيرا إلى أن يأتي أول استدعاء للمصعد.. فإذا كان الثالث يضحك جذلا وهو ينظر إلى صورته في المرآة صائحا:

- تكسب. ويمد يده كما لو كان يدفع مقابل الرهان.

أما إذا كان الحدس خاطئا فإنه يهز رأسه متظاهرا بالحسرة وهو ينظر إلى صورته في المرآة:

- أخسر.. ويمد يده أيضا ليدفع مقابل الرهان.. هو الذي يدفع دائما.. وأما الفائز فهو ذلك الموجود في المرآة؛ ربما لأنه غير موجود في الحقيقة.

عندما يفتح باب المصعد ليدخله أحد ما يكون قد رتب ملامحه سريعا كربة بيت تستقبل ضيفا على غير ميعاد.. تتحول الابتسامة إلى نظرة جدية، يتجاهل صورة الواقف في المرآة، وتتعلق عيناه فقط بلوحة المفاتيح.

بمجرد نزول الساكن يبدأ دورا جديدا.. الخامس، السادس، الثاني.. نادرا ما يخطئ هذه الأيام.. فهو يعرف جيدا مواعيد أغلب السكان، قلما تتغير المواعيد أو يختلف النازل.. ينظر إلى رفيق المرآة ويهمس:

- أنا لا أغش!!

بانتصاف اليوم يكون الملل قد أصابه.. لكن لا بأس؛ فبعد دقائق سيتوارد الغرباء.. زوار للشركات أو السكان، مندوبو مبيعات،

بحر الكتب
bahr.alktob

عمال إصلاح. يراهم وهم يضحكون ويصرخون ويصمتون.. عالم يتغير بما يكفي ليكون مُسليا بالنسبة له.

يتوقف المصعد في الدور الرابع، يُخرج رأسه باحثا عن صاحب الاستدعاء.. يجد باب الشقة مفتوحا والصوت يأتي من الداخل:

- انتظرني يا عبده.

- حاضر يا حاج.

يعرف هذه الشقة جيدا..يراها أفخر شقق العمارة.. يستمتع باختلاس النظر إلى ما يظهر له من مدخلها وهو يتنهد كالعادة.

يدخل الحاج.. يُسلم على عبده الذي يبدو ذهنه مشغولا، يغادر في الدور الأرضي. يتلفت عبده يمينا ويسارًا بحثا عن راكب جديد.. لا أحد. يغلق الباب ويصعد إلى الدور العاشر وعلى وجهه ابتسامة كبيرة.. يدب النشاط في جسده، يبلل سبابته في فمه ويبدأ في رسم مستطيل كبير يمتد من الأرض وحتى أعلى نقطة تصل إليها يداه.. يرسم فتحة صغيرة على الأطراف، يُخرج مفتاح المصعد من جيبه ويغرسه فيها، يدفع بعدها مستطيله ويدخل، يبلل إصبعه مرة ومرة ومرة. يرسم مقاعده وأرائكه ومائدة تتسع لأربعة أفراد، يرسم غرفة ثم غرفة ثم غرفة، يدور حول نفسه وهو يرسم ويرسم. عشرات الخطوط تقاطعت وتداخلت.. إلا أنه عندما توقف فجأة كان يعرف جيدا كل ما رسمه..كان يرى مكونات كل غرفة منفصلة تماما.. وعندما كان نازلا ليلتقط الراكب الجديد ابتسم وهو يرى نفسه جالسا على الكرسي الهزاز في غرفة الجلوس.

بحر الكتب
bahr.alktob

فتح الباب في الدور الثالث ودخلت الدكتورة نرمين.. كان يحب أن يغمض عينيه في لحظة دخولها ليملأ أنفه برائحة عطرها المميز. هز رأسه مُحييا كالعادة فتجاهلته كالعادة.. التفت إليها خلسة.. حاول أن يدخلها بعينيه من الباب الذي رسمه منذ قليل لكنها لم تدخل.. بدت له أكبر من الباب.. وبدا جسدها الممشوق كصخرة جامدة أعظم كثيرا من أن يزحزحها.. ابتسم باستسلام بمجرد نزولها وهز رأسه ساخرا.

مد رأسه لينظر إلى غرفه.. أخذ يرسم زهورا وزهورا وزهورا، وزّعها في كل الغرف، ضحك في سعادة حقيقية عندما وجد رائحة الزهور تملأ أنفه. تمالك نفسه ورسم الجدية مرة أخرى عندما فتح الباب، دخلت علا؛ خادمة في الدور السادس.. نظرت إليه وابتسمت في وَلَهٍ معتاد، رد ابتسامتها لكنه مد عينيه إلى رسمته بالكامل، ضغطها بعينيه ثم رفعها إلى أعلى حتى التصقت بسقف المصعد. تخيل علا القصيرة وهي تحاول أن تقفز لتمسك بأرضية شقته فابتسم.. ابتسمت على ابتسامته واقتربت منه فأدار وجهه إلى لوحة المفاتيح وهو يقاوم رغبة عارمة ما كان ليكبحها لولا أن المصعد توقف وركب فيه آخرون.

بمجرد نزولهم مد يده ليجذب بناءه الوهمي، أعاده إلى حجمه الطبيعي وهو يهمس ساخرا:

- قال علا قال.

تذكر ما فعلته معه الدكتورة نرمين.. بلل أصابعه مرة أخرى ورسمها، نظر إليها.رشيقة وأنيقة مثل نرمين.. وضعيفة ولهانة مثل

بحر الكتب
bahr.alktob

علا.. أقصر منه ببضعة سنتيمترات.. بعد نظرة متأنية جعلها أقصر منه كثيرا لكن.. أطول من علا!!

فتح لها الباب لتدخل، عيناه تدوران بها في أركان المنزل، تشير إلى الحائط فيبلل أصابعه مسمارا ومطرقة وإطارا يضع به صورة كبيرة.. يعلقها على الحائط ويبتسم!!

يتحرك به المصعد مرة أخرى.. إلى الدور الأرضي. يفتح الباب فيجد أمامه قاسم بيه، وراءه سكرتيره واثنان من حراسه يحملان سلاحهما في وسطهما. يدخل الأربعة إلى المصعد، يكادون يملئون الفراغ الذي يتسع في الأصل لخمسة أفراد. قاسم بيه بكرشه الضخم وحقيبته المنتفخة وحراسه الذين يشبهون أبواب العمارات.. ينحشرون سويا.. يستدير بعفوية بحثا عن رسمته فلا يراها في الزحام، ومع الرائحة النفاذة التي تخرج من سيجاره تضيع رائحة الزهور.

- الأخير يا بني بسرعة!!

يهز رأسه في هلع:

- طبعا يا باشا.

تتحرك أصابعه على لوحة المفاتيح.. تنطلق ضلفتا الباب فتنغلقان في قسوة.. توقفهما حقيبة أخرى ممتلئة أيضا.. يفتح الباب مرة أخرى.. يعرفه هو أيضا.. إنه شريك قاسم بيه.. يدخل إلى جوارهم.. يخرج من لوحة المصعد رنين جاف غير مرحب به.. فيأتي صوت عبده متحشرجا:

- وزن زائد.. لا بد أن ينتظر أحدكم للمرة القادمة.

بحر الكتب
bahr.alktob

ينظرون إليه جميعا في آن واحد، يشير إليه قاسم بيه بأطراف أصابعه في لا مبالاة. ينظر إليهم في تردد، يخرج محدقا بعينين دامعتين في أرقام المصعد وهي تتتالى صاعدة إلى الدور الأخير! تجاهل التعليقات الساخرة التي جاءت من صبي المكوجي عندما وجده واقفا معه ينتظر. عندما عاد المصعد بعد دقائق طويلة.. كان مليئا بالدخان، وكانت أرضيته مليئة ببقايا الطين من أقدامهم. أخذ عبده يدور بعينيه وأنفه في فراغ المصعد وهو يبحث عن بقايا رسمته التي اختفت بين دخان سجائرهم ورائحة أنفاسهم الكريهة، أدار رأسه مرة ومرة ومرة.. سقطت من عينيه دمعة كبيرة جعلت صبي المكوجي يهمس وهو ينظر إلى الأرض:

- لقد جن عبده!!

بحر الكتب
bahr.alktob

سوار.. لمعصم آخر

- نانا زمانها جاية..جاية بعد شوية.

تظاهرت زوزو (أو زينب) بأنها راحت في النوم وهي تقبض على السوار الصغير في يدها، والذي يبدو أصغر كثيرا من معصمها الدقيق؛ ربما لتتخلص من سخافة غناء المُشرفة الذي يثيرها أكثر مما يسعدها.. نفس الأغنية كل ليلة، والتي تعرف زوزو جيدا أنها لا تناسبها. فنانا أو حنان ليست أمها، وصِلة القرابة التي تربطهما لم تعد تساوي في عينيها الدامعتين الكثير، الدليل ما رأته منها سابقا وما تراه منها الآن، تركتها هنا كما فعلت من قبل. هذه المرة لم تكلف نفسها حتى عناء أن تشرح لها أنها ستتركها في هذا المكان للأبد.. مع ذلك فهي تحبها.. بالرغم من كل شيء.

- زوزو.. إحنا هنسافر أسبوعين مصيف، والبيت هيفضى عليكي.

- ممكن أقعد في البيت لوحدي؟

- لأ طبعا يا حبيبتي.. أولا أخاف عليكي.. ثانيا الناس تاكل وشنا، هنروح الدار اللي أنتِ بتحبيها.. أسبوعين ونرجع ناخدك..

بحر الكتب
bahr.alktob

ذهبت بها إلى الدار. لم تستطع زوزو أن تمسك دموعها وهي تسألها في شغف:

- أسبوعين يا نانا.. مش أكثر.

قبَّلتها نانا في خدها وهي تجري:

- طبعا يا حبيبتي.. أسبوعين مش أكتر.

لم تستطع أن تطلب منها أن تصطحبها معها؛ تعرف أن زوجها لن يوافق، وأن بناتها يتضررن من النوم معها في غرفة واحدة. سمعتهم من قبل يتحدثون عنها مرات ومرات.. أصبحت تنام على الأريكة في غرفة المعيشة إلا في الأيام التي تكون فيها مريضة. وهي والحمد لله أيام قليلة. هي أيضا لم تعد تريد أن تسافر معهم. سافرت معهم من قبل ووجدت نفسها لا تملك أي حق في الذهاب معهم إلى البحر ولا إلى السينما ولا حتى إلى السوق. لكنها مسئولة عن النظافة والنظام.

- سلي نفسك بالأطباق وكنس الشقة ونشر الغسيل و...

لم يكن يهمها كثيرا؛ فنانا هي كل مَن تبقّى لها من أقاربها، وهي الآن أضعف من أن تواجه الحياة وحيدة؛ لذلك تحملت كثيرا من أجل أن تقنع نفسها بأنها ما زالت تمتلك أسرة.. وأنها ليست «مقطوعة من شجرة» كما كانت هي نفسها تقول عن ابنة حارس العقار الصغيرة التي فقدت أباها وأمها وأخاها في حادث ولم يجدوا مَن يرعاها فذهبوا بها إلى دار لا تختلف في عينها كثيرا عن التي هي فيها الآن، لكن كلام الناس لم يُعطِ لحنان فرصة الاختيار

بحر الكتب
bahr.alktob

في إيواء زوزو عندها. أخذتها من البيت الذي عاشت فيه أعواما حلوة.. بين أسرة مكونة من أب وأم وابنة مدلّلة. دورة الأيام كانت سريعة.. غادرته مع حنان بحقيبة ملابس صغيرة، وصندوق مجوهرات أصغر كان مليئا عندما دخلت به بيت حنان، لكنه تناقص يوما بعد يوم.. طلبت منها أن تعطيها السلسلة التي ورثتها عن أمها والسوار الصغير وتحتفظ بالباقي.. خرجت عليها حنان بالسوار ضاحكة في سخرية.. جلست زوزو تشرح لها قيمته في براءة، على غير المعتاد لم تستطع أن تخفي غضبها عندما أخذت حنان تتمادى في سخريتها، علا صوتها لأول مرة:

- أنتِ مش ممكن تكوني أم.

أجابتها بنظرة قاسية. تماسكت وهي تسأل:

- طيب والسلسلة؟

عادت تضحك ساخرة مرة أخرى:

- ياحبيبتي لما يجيلك عريسك تاخديها إن شاء الله.

ربما كان هذا اليوم هو بداية قرار حنان بالاكتفاء بما أخذته زوزو من حياتها ووقتها، ربما تكون الفكرة جاءتها عندما كانت في المصيف، ربما نسيتها في الدار.. المهم أنها لم تَزُرها حتى لمدة شهرين.. كانت تجيب على مكالمتها بمنتهى اللطف:

- حبيبتي أنا جاية.. ما تقلقيش.

بحر الكتب
bahr.alktob

لكنها لم تأتِ بعدها.. واعتادت زينب أن تقضى الليل وهي تمسك بالسوار الصغير.. والذي كانت المشرفة تمسك به أحيانا في استهزاء، وتَمُط شفتيها وتقول:

- ما تساويش.

فتنظر لها زوزو في غضب، ولا تكلمها إلا بعدما تعتذر لها، وتقر بخطئها في حقها وحق السوار.

وتُغني المشرفة السخيفة لها في النهاية نفس الأغنية: نانا زمانها جاية. كما تغني في الغرفة الأخرى: مروة زمانها جاية. وفي غرفة ثالثة: محيي جاي إمتى؟

وجاءت حنان في النهاية، لكن بعد أن اتصلوا بها من دار المسنين ليخبروها أن زينب أمها ماتت في الليل. سالت من عينيها دموع لا قيمة لصدقها أو كذبها عندما وجدتها مسجّاة في سريرها؛ يداها مضمومتان إلى صدرها.. بين أصابعها السوار البلاستيكي وردي اللون، والذي لا يزيد على قطر إصبعين من أصابعها الآن، والمكتوب عليه بخط باهت:

غرفة ٢٣، اسم المولودة: حنان، الوزن ٢,٩٠٠ كلجم، كريمة السيدة زينب أحمد علوان.

بحر الكتب
bahr.alktob

صبغة سوداء

يوم إجازته يختلف تماما؛ يقوم متأخرا على غير العادة، شفرة حادة ستقتلع الشعيرات السوداء الجافة التي نَمَت على وجنتيه على مدى أسبوع كامل، يتبعها بمسحة من أصابعه الجافة ليتأكد من اختفاء آثارها من على وجهه، يبتسم لنفسه في المرآة.. يرتدي الحُلة الأنيقة التي اشتراها من سوق الملابس المستعملة بأجر شهر كامل.. ويعود إلى المرآة مرة أخرى. يرفع رأسه عاليا ويديره يمينا ويسارا في عَظَمة. قطعة كبيرة من كريم الفازلين ستوضع على شعره لمنحه بريقا يرسم على وجهه ابتسامة متراقصة، يفتح باب الغرفة وينطلق بخطوات ثابتة على السلالم المتكسرة. تقع عيناه على حذائه؛ فردة نظيفة رغم أنها فقدت لمعتها.. أما الأخرى فعليها تراب متراكم، كان يستحق مَسحة سريعة لتكتمل أناقته.

يمشي في الحارة بثقة فترتسم على الوجوه ابتسامة متعاطفة؛ قد يبدو منظره غريبا لكنه معتاد في الإجازة من كل شباب الحارة، يذهب إلى موقف الأوتوبيس، يشتري الجريدة ويُقلب فيها دون أن تبدو عليه أي انفعالات، يقفز في أول أوتوبيس يأتي بغير أن ينظر

بحر الكتب
bahr.alktob

حتى على رقمه، يتحرك وسط الأجساد المتلاصقة وهو يحاول أن يحافظ على أناقته، تدوس قدمٌ على حذائه فتضيف المزيد إلى طينه، يجلس على أقرب مقعد يخلو، ينزل في آخر الخط، يسأل عن الحي الذي هو فيه الآن، ثم يمشي بغير هدى إلى أقرب مقهى يجده، يطلب الشيشة وكوب الشاي.

- حالا يا أستاذ.

يبتسم في سعادة، يشير إلى الولد الصغير الذي يحمل صندوقا خشبيا وقطعة من الكرتون ليُلمّع له حذاءه:

- عايزُه مراية؛ يليق على الشياكة.

ينحني الولد ليضع قطعة الكرتون منتظرًا أن يخلع الحذاء فيهز رأسه رافضا:

- وأنا لابسها!!

يبتسم الصبي محرجا، ينحني ويُخرج علب الورنيش وزجاجات الأصباغ وينهمك في عمله وهو يحرك رأسه يمينا ويسارا، تشاغل عنه بالنظر في الجريدة وهو يأخذ أنفاسا عميقة من الشيشة، ينظر إليه وهو مُنحنٍ. على قفاه خطوط محفورة من جراء الهرش أثناء العمل. أطرافها سوداء من آثار أصابعه المصبوغة. يميل عليه ساخرًا:

- إيه يا بني ده؟ أنت مابتستحماش؟

يبتسم الصبي خجلا وهو يقول بصوت مرتعش:

- باستحمى والله يا أستاذ. بس الجلخ ما بيطلعش.

بحر الكتب
bahr.alktob

تنطلق ضحكاته عالية، فيلتفت إليه رواد القهوة. يفتح جريدته متعمدا أن يخفضها ليبدو وجهه واضحا لمن حوله وهو يتصفحها، يتظاهر بالتركيز الشديد وهو يتفرج على الصور محاولا أن يستنبط ما تشير إليه، يقلب صفحة تلو الأخرى والتعبيرات تتقلب على وجهه مع كل صفحة، بدت على الرجل الذي كان يراقب ملامحه الدهشة وهو يقلب في جريدة مشابهة بحثا عن مصدر كل تلك الانفعالات التي حار في مصدرها، قبل أن ينشغل عنه بالكلمات المتقاطعة التي يحل نصفها فقط في كل مرة.

يتوقف هو عن التطلع في جريدته فجأة، ترتسم على وجهه نصف ابتسامة وهو يراقب الصبي الذي انهمك في عمله وعلى وجهه ابتسامة كاملة مصطنعة.. تتحرك عيناه يمينا ويسارا مع رأس الفتى الذي يتحرك كالبندول مع فرشاته، يعلو صوته فجأة:

- كل دية صبغة يابن الـ...

يلتفت إليه الصبي في ذعر.. يركل بقدمه صندوقه وأصباغه فتسيل على الأرض.. ينحني الصبي محاولا أن يجمع ما يسيل في داخل الزجاجة مرة أخرى.. وهو يلاحقه بوصلة من السباب الغاضب، يقترب صبي القهوة محاولا تهدئته، يُلقي بالجريدة في وجهه ويدفع حسابه ويغادر وهو يصب لعناته عليهم جميعا.

يُلقي بجسده المتهالك على مقعد الأوتوبيس الذي سيعود به من حيث جاء، يتذكر ذعر الصبي وهو يركل صندوقه فيبتسم باستخفاف، تقع عينه على الفردة الوحيدة التي أصبحت تلمع من حذائه فتتسع ابتسامته أكثر؛ نفس الابتسامة التي ستظل على وجهه

بحر الكتب
bahr.alktob

إلى أن يستيقظ في الصباح فتختفي فجأة عندما يقوم مبكرا ليرتدي ملابس العمل، وينحني ليرص زجاجات الصبغة والورنيش في صندوقه الخشبي القذر، وهو يهرش في قفاه فيحفر فيه خطوطا جديدة.. أطرافها سوداء!!

بحر الكتب
bahr.alktob

الخروج إلى النص

(١)

- واحد دجاج مشوي مع أرز مع سلطة خضراء.

- حاااضر..

قالها وهو يتحرك بهمة ونشاط شديدين. يتوقف فجأة عندما يسمع صوت الساحر في التلفزيون، تتعالى ضحكات صديقه:

- هذا الرجل عبقري.. بالفعل ساحر. أليست هذه هي المسرحية التي كنت تعمل فيها؟!

يهز رأسه موافقا.

- ليتك احتملت قليلا.. كان حالك سيتغير.

يبتسم صامتا وهو يستكمل تحضير الطبق المطلوب.

(٢)

تتحرك شفتاه ليردد كل ما يقوله الممثلون عدا الساحر، عندما

بحر الكتب
bahr.alktob

يأتي دوره يصمت هو أيضا منتظرا ما سيقول، لا يستطيع حتى توقع كلماته، رغم أنه عمل في تلك المسرحية ثلاثة أعوام تامة.

لم يكن دوره يتخطى كونه ضمن المجموعة؛ هؤلاء الذين يتواجدون لإضفاء الواقعية على المشاهد، كلامهم لغط غير مفهوم، حركتهم عشوائية بلا معنى، صورهم معتادة لدرجة أنها غير مرئية.. يوصفون في النص بكلمات مقتضبة.. مشاة، جالسون على المقهى، زحام أمام المدخل.. إلخ.. إلخ.. إلخ...

كان يغمض عينيه ويحفظ أدوار جميع الممثلين الناطقين أملا في فرصة.. حيَّره كثيرا الساحر؛ فدوره لم يكن معروفا لأحد.. كان يختلق كل يوم كلاما جديدا، طالما رآه هو سخيفا واندهش لردود أفعال الجمهور. يقول كلاما ويبتسم، فيبتسم الجمهور.. ويقوله في يوم آخر ويبكي، فيصفق الجمهور.. ولا يجد ما يقوله في يوم ثالث فيُدلي لسانه ثم تخرج منه أصوات مبهمة كما لو كان أبكم، فيضج الجمهور بالضحك.

(٣)

- الطبق يا عم.. أفق.. خلاص!!

يمد إليه يده بالطبق بهدوئه المعتاد.

يتابع صديقه:

- ليتني أمتلك هدوءك.. أنت يجب أنْ تكون في صالة الطعام معنا.. مكانك ليس في المطبخ.

بحر الكتب
bahr.alktob

يهز رأسه رافضا:

- لن أكون مناسبا.

(٤)

- فوق الأرض أم تحت الأرض؟

كان سؤال مالك المطعم الذي كان يعرفه منذ كان يأتي في الإجازات ليساعد والده. نظر إليه في حيرة.. استطرد الرجل:

- أعني تريد أن تعمل في المطبخ أم في صالة الطعام؟

- لا فارق عندي.

- أنا أخبرك بالفارق؛ في المطبخ أهم شيء الأمانة والنظافة.

- وفي الصالة أيضا.

- طبعا، لكن أضف إليهما أن الزبون دائمًا على حق.

- اجعلني في المطبخ.

(٥)

تصفيق حاد، وانحناءة لا تمثل أي شيء لصاحبها سوى جزء من عمله، وهو واقف يراقب من بين الكواليس. لا يراه سخيفا مثلما يراه كل يوم؛ فاليوم سيقف أمامه في المسرحية لأول مرة، دوره اختلف؛ لن يمر مثل القطة الضالة من جانب المسرح إلى الجانب

بحر الكتب
bahr.alktob

الآخر مع أشباهه، اليوم أصبح له وصف مستقل.. الشاب الأول. كان يتمنى لو أصبح له اسم. على أي حال يكفيه أن ما سيقوله اليوم يشغل ثلاثة سطور كاملة من النص.

يغمض عينيه وهو يسترجع دوره. يعلم أن الساحر قد يسخر منه، وقد يحاول أن يُضحك الجمهور عليه كما يفعل عادة مع الكومبارس، لكنه أعد نفسه جيدا ليقتنص الفرصة، سيرضيه ويرضي نفسه ويرضي الجمهور، سيترك له الساحة المعتادة ليُضحك الناس.. لكنه سيلتزم بالنص:

- أدخل من يمين المسرح، أمشي تجاهه ببطء شديد، أدور حوله دورة واحدة - غالبا هنا سيسخر مني - لكني لن أقف متضائلا في بلاهة كما يفعل الآخرون؛ سأنظر تجاه الجمهور وسأُتِم حواري مهما قال.. لن أضحك ولن أسكت ولن أرتبك.

لخشبة المسرح والجمهور هَيْبَتان تتزايدان عندما تكون متكلما. عرفهما لأول مرة لكنه تمالك نفسه وهو يتحرك في المسار الذي حفظه تماما تجاه الساحر. قلبه يدق بعنف، يقترب منه ويأخذ نَفَسا عميقا قبل أن ينطق:

- يا باشا.. أنا وهي بنحب بعض.. أرجوك ماتحرمنيش منها.

نظر إليه الساحر نظرة احتقار تام، وجاء رده لا علاقة له بالنص على الإطلاق.

- ما هي برضه بتحب الكلب بتاعها والكلب بيحبها.. أجوزه لها هو كمان؟!

بحر الكتب
bahr.alktob

حاول أن يواصل دوره، أدهشه عندما بدأ ينبح ساخرا منه، كلما حاول أن يتكلم قاطعه بنباح عالٍ وهو يشير إليه.. والجمهور يضحك. لا يمنحه الفرصة لينطق ولا الجمهور يسمع في هرجه شيئا.. آثر الصمت لدقائق، انتظر إلى أن تعب من نباحه، نظر إليه بمنتهى الثقة، عاد يكرر جملته بصوت أعلى وبأداء أقوى من المرة الأولى:

- يا باشا.. أنا وهي بنحب بعض، أرجوك ماتحرمنيش منها.

نظر إليه الساحر مرة أخرى.. هذه المرة كانت نظرته دهشة مشوبة بالغضب.. تبعها بلَطْمة على وجهه.. فارتفعت ضحكات الجمهور تصك أذنه.. وقف ينظر إليه وصدره يعلو ويهبط.. رفع يده هو أيضا وهوى بها على وجه النجم الذي فاجأته اللطمة فأسقطته على الأرض. لم يَدْرِ هو بعدها مَن الذي ضربه على رأسه من الخلف، ومن الذي ركله وهو ساقط، ومن الذين حملوه وألقوا به خلف الكواليس. كل ما أدهشه هو ضحكات الجمهور التي لم تنقطع، لا سيما حين قام الساحر مترنحا بعد قليل فازداد ضحكهم، إلى أن تمالك نفسه واستكمل العرض الذي عَلَّق عليه النقاد بأنه كان أقوى من كل ليلة.

ما زالت ذكرى تلك الليلة تعبر عقول من عاشوها من آنٍ لآخر؛ فيصفه بعض الممثلين بالشجاعة، ويصمه بعضهم بالغباء، وتمتد يد الساحر إلى مكان الصفعة بحركة آلية يبصق بعدها وهو يسب ذلك التافه، أما هو فترتسم على وجهه ابتسامة ارتياح ورضا، ربما كانت لتتسع أكثر لو أن أحدًا أخبره أن الساحر لم يخرج بعدها عن النص.. ولا لمرة واحدة.

بحر الكتب
bahr.alktob

معطف رمادي جديد

وقف ينظر إليهم وهو لا يصدق ما يسمع.

واحد من أيام العمر التي تحمل في داخلها ما يجعلها علامة يؤرخ بها لما قبلها وما بعدها. في صدره نشوة تجعله يرى الدنيا أكثر نورا، ويشعر بدفء شديد مصدره معطفه الأبيض الذي يراه يعكس ضوء الشمس من حوله، فيجعل الجميع ينظرون إليه وهو يمشي في طرقات المستشفى بخطوات ثابتة، كل شيء أروع مما كان بالأمس قبل أن يصبح طبيبا، ومما سيكون غدًا بعد أن يعتاد على ما يحدث. ابتسامة الحظ جاءت من حيث لم يكن يتوقعها؛ فهو سيعمل مساعدًا للدكتور شامل؛ أحد أعظم الأسماء في عالم الجراحة، نفس الرجل الذي طالما تنصل من مساعدته في الكلية رغم أنه كان صديقا لوالده، إلا أن وفاة الأب على ما يبدو أيقظت في داخله إنسانية لم تظهر أمامه من قبل. في يوم العزاء قَبَّله وهو يخبره أنه يريده أن يبدأ معه العمل من الغد، تعجب قليلا لكنه همس لنفسه بأن هناك من البشر مَن لا توقظ فضائلهم إلا المصائب، لا سيما أن

بحر الكتب
bahr.alktob

ذلك تزامن مع رحيل المساعد السابق الذي أصبح كبيرًا بما يكفي ليستقل بعمله. في النهاية بقي ما قالته الأم تعليقا على ما حدث:

- يقطع من ناحية ويصل من ناحية.

عندما بدأت الجراحة التي وصفها أستاذه الدكتور شامل ببساطة بأنها مجرد استئصال للمرارة، شعر هشام الذي يدخل العمليات مشاركا لأول مرة بتوتر شديد، وبمسئولية ضخمة رغم أن دوره لم يكن يتعدى الوقوف في أحد جوانب الغرفة منتظرا التعليمات، كان يهمس لنفسه أنه واحد من المسئولين عن فتح بطن هذه السيدة التي تملك نفس اسم أمه، والتي أوصته قبل أن تغيب عن الوعي بأن يُطمئن أولادها فور انتهاء الجراحة.

مع الوقت بدأ توتره شيئا فشيئا يتحول إلى الدهشة وهو يسمع حوار الدكتور شامل أثناء الجراحة، كان يظن أن الأمر سيكون مليئا بالنظرات وقطرات العَرَق والقرارات المشتركة الحاسمة كما كان يرى في الأفلام، أو على الأقل بالشرح والتعليمات كما كان يرى في الكلية. الحقيقة التي قالها لنفسه في أسى وسخرية أن حديث الدكتور شامل لا يختلف كثيرا عن حوارات عم سعيد الحلاق، والتي طالما جعلت هشام يخاف على أذنه وهو يتساءل: كيف يستطيع هذا الرجل السخيف أن يركز في تسوية الشعر حول أذنه وهو يقول مثل هذا الكلام الفارغ؟

بعد دقائق.. اعتاد هشام حوار الدكتور شامل، وضحكات الممرضات من حوله. بدأ ينسى ما كان يردده لنفسه.. أنه في غرفة العمليات وأن ما ينزعونه من باطن المريضة.. وإن كانت «مجرد

بحر الكتب
bahr.alktob

مرارة» فهي جزء من أحشائها الموجودة في بطن لا تُفتح بأزرار مثل القميص.. بل تُفتح بقطع الجلد واللحم، بدأ يشارك في الحديث الذي تطرق إلى مباريات الكرة، ابتسم له الجرَّاح مشجعا عندما سمعه يذكر أسماء الهدافين وعدد أهدافهم.. فمنحه ثقة شجعته على الاستمرار.

عاد هشام مرة أخرى ليتذكر أنه في غرفة العمليات عندما لاحظ التوتر الذي أصاب الجميع فجأة؛ الجراح يصرخ في طبيب التخدير، طبيب التخدير بدوره يصرخ في الممرضات، صفارات طويلة تنطلق من الأجهزة، لم يحتج الأمر طويلا ليعرف هشام ما حدث؛ فالسيدة عزيزة تُوفيت إلى رحمة الله.

صاح الدكتور شامل في غضب مُعلنًا وفاة المريضة، رد عليه طبيب التخدير في حدة مُعلنًا عدم مسئوليته عن وفاتها.

- يا سيدي أنا لا أتهمك! عمرها؛ المشكلة في الإجراءات والتقارير وخروج الحالة؛ أعني الجثة. سيستغرق ذلك وقتا طويلا، وأنا عندى جراحة بعد ساعة في مستشفى آخر.

- بالطبع لن تذهب.. إنها مريضتك أنت، تصرَّف بسرعة لأن عندنا بعدها حالة مسالك، وبعدها يجب أن أسافر إلى الساحل الشمالي لأُحضر زوجتي وأبنائي.

ارتفع صوتهما الغاضب؛ الممرضات بَدَأْن في التسلل إلى الاستراحة لاستغلال دقائق الخلاف لتناول غدائهن الذي يكاد يبرد.. وقف هو ينقل عينيه في ذهول بين كل ما حوله وبين السيدة

بحر الكتب
bahr.alktob

المسجاة على السرير، على وجهها ارتياح لا يُعرف مصدره.. وعلى وجهه هو خليط من الاشمئزاز والدهشة والحزن.

أفاق على صوت الدكتور شامل وهو يقول في حدة:

- لماذا تقف هكذا؟ اذهب وأحضر مدير المستشفى.

انطلق مهرولا إلى غرفة المدير، تجاهل السكرتيرة.. دخل عليه وهو يلهث شارحا له ما حدث بأنفاس متقطعة، هب الرجل واقفا في غضب، انطلق إلى غرفة العمليات والطبيب الشاب يهرول خلفه.

دخلا ليجدا النقاش مستمرًا، صاح فيهما المدير بغضب:

- لن يغادر أحد؛ نحن في مصيبة.

أجاب الدكتور شامل مستنكرا:

- مصيبة؟! مريضة وتُوفيت.. هل هذه أول مرة؟

- نعم أول مرة؛ التأمين الذي دفعته لا يغطي الإقامة.. وطبعا إذا عرف أهلها بوفاتها فلن يدفعوا شيئا.. لن تغادروا حتى آخذ حق المستشفى.. منهم أو منكم.

وقف هشام صامتا وهو يشعر أنهم يأكلون الميتة الملقاة على السرير إلى جواره، شعر أنه شريك بشكل ما في شيء ما.. أفاق على صوت الجرَّاح:

- أنا عندي الحل.

اقترب من هشام، وضع يده التي كانت لا تزال في قفاز الجراحة على كتفه مبتسما وهو يقول:

بحر الكتب
bahr.alktob

- ولدنا الدكتور هشام سيخرج لأهل المريضة.. يخبرهم أنها تحتاج إلى أكياس دم وأنواع غالية من الأدوية فورا، ويطلب منهم دفع مبلغ آخر تحت الحساب.

سأله في اضطراب عما يفعله إذا لم يكن معهم ما يكفي، ضحك الرجل وهو يجلس على المقعد المجاور لسرير العمليات بهدوء قائلا:

- لا تخف يا ولدي.. سيحضرون المال.

جاءه صوت المدير مُثنيًا على الفكرة، تسمَّر في مكانه وهو ينظر إلى الثلاثة في تردد، أدار رأسه نحو السيدة التي كانت تحدثه منذ لحظات، وقعت عيناه على دماء تركها قفاز الدكتور شامل على كتف معطفه الأبيض فشعر بأنه يريد أن يبكي.. عاد المدير يحادثه بلهجة فيها الكثير من الحدة:

- لماذا لا تتحرك؟

تحرك هشام في بطء، دفع باب العمليات خارجا، سار في طرقة المستشفى وهو يفكر في عزيزة المسجاة على سرير العمليات وعزيزة الأخرى التي تنتظره في البيت لتسمع منه حكايات ابنها عن أول يوم عمل له، تدافعت الأفكار في عقله؛ مستقبله الذي كان سيبدأ مع د. شامل، ربما لا تكون الحياة معه ناصعة كما كان يبدو له، لكنه كان سيتعلم منه. المستشفى الكبير الذي لم يكن يحلم بالعمل فيه، ضميره والقسم والحقيقة والمصيبة. وضع نفسه مكان كل مَن بالغرفة حتى الراقدة فيها.. تنهد وهو يتساءل في حيرة.. يكذب ليجد نفسه أم يصدق ليجد نفسه؟ دخل استراحة الزوار

بحر الكتب
bahr.alktob

متثاقلا، لم يكن صعبا عليه أن يعرف أبناء السيدة عزيزة الذين كانوا يشبهونها كثيرا، وزوجها البسيط الذي كان يربت كتف أصغرهم. اقترب منهم بخطوات بطيئة.. توقف فجأة.. اتجه إلى مبرد المياه الموجود في ركن القاعة، أخذ كوبا من الماء، رشفه في بطء، اقترب بعدها من الرجل.. مال على أذنيه.. وأفرغ ما كان في صدره من كلمات.

في المساء عندما أغمض عينيه لم يجد أمامه نورا خالصا ولا ظلاما خالصا، رغم أنه كان يرى نفسه مخادعا.. أخبره كما طلبوا منه؛ أنها في حالة حرجة وقد تحتاج إلى دماء وأدوية.. لكنه وعده أن يوفرها هو له مباشرة لأنه يعرف مَن يفعلون ذلك مجانا ولا يحبون ذكر اسمهم.. كانت الرسالة بعد ذلك واضحة؛ أن يرفض الرجل دفع المزيد من المال ويجيب بأنه سيحضر لهم كل ما تحتاجه المريضة، عندما عاد لهم أخبرهم أن الرجل رفض، وأنه بدت عليه الصلابة وهو يقول إنه يستطيع أن يوفر لها ما تحتاجه من أدوية وأكياس دم.. اقترح عليهم إنهاء الموضوع بغير مشاكل، أكد لهم المحاسب الذي أرسلوه ما قاله هشام، فكلفه مدير المستشفى غاضبا بأن ينقل للزوج خبر الوفاة، كان ذلك هو أسهل جزء في المهمة؛ تماسك الرجل وهو يجمع أبناءه بين ذراعيه ويحادثهم ويناجي الله.

في اليوم التالي.. كان هشام يقف في ركن من غرفة العمليات ينتظر التعليمات.. ينظر إلى أصابع أستاذه التي تتحرك بمهارة فائقة.. يحاول أن يتجاهل أحاديثه التي تشبه أحاديث عم سعيد الحلاق، يجاهد لكيلا ينسى أن هذا البطن يُفتح بشق الجلد واللحم.. تلتقي أعينهما فيهرب بعينيه كما لو كان لا يريده أن يمسك به متلبسا.

بحر الكتب
bahr.alktob

- أحسنت.

قالها الدكتور شامل بلهجة ساخرة.. تابع وهو يواصل خياطة الجرح: عندما أرسلتك كنت أعرف أنك لن تدعهم يدفعون مالا بعد وفاتها.. لا أعرف كيف فعلتها، لكن.. أحسنت.

نظر إليه هشام في حيرة:

- لماذا أرسلتني إذن؟!

يجيبه وهو يخلع قفازيه بلا مبالاة:

- لتعرف إجابة السؤال الذي ستسأله لنفسك وأنت في عمري.

يتجه نحو باب الغرفة فيدفعه بقسوة ويغادر.. يأتي صوته عاليا من الممر الخارجي:

- هل كنت دائمًا هكذا.. أم كان لك قلب في يوم ما؟!

بحر الكتب
bahr.alktob

المصلوب!!

كان الليل.. وكان الطريق.. وكان الزحام!

القمر غائب، والسيارات متراكمة، والوصول عسير، وهو منهك وجائع ونعسان مثل كل ليلة، يريد أن يعود إلى بيته ليأكل أي شيء ثم يُلقي بجسده في سريره حتى الصباح؛ ليبدأ يوما جديدا لا يختلف عن سابقه. سيارته لا تجد أي متسع للحركة في أي اتجاه منذ دقائق طويلة، يتنهد مرهقا ويُلقي برأسه على مسند مقعده ويغمض عينيه.. يكاد يروح في النوم.. يأتيه نفير مزعج من خلفه فيفتح عينيه هلعًا، يجد أن السيارة التي أمامه تحركت لبضعة أمتار، فيتحرك خلفها وهو يلعن مَن أمامه ومَن خلفه.

كعادته.. بدأ البحث على مرمى البصر عن طريق جانبي يصل به، عادة ما يحفظ هو مثل هذه الطرق في الأمكنة التي يعرفها، أما هنا فهو لا يعرف الكثير، يلاحظ الطريق الصغير الذي تسلكه العديد من السيارات.. يتبعهم مطمئنا، فلا بد أنهم يعرفون إلى أين يذهبون.

يدخل خلفهم فيجد الطريق ضيقا وملتفا.. أزِقّة وحارات، لا

بحر الكتب
bahr.alktob

بأس، لا بد أنه سيصل في النهاية إلى طريق أقل ازدحاما من ذلك الذي كان يمشي فيه، تزعجه كثرة المنعطفات والتفرعات، كل طريق يسلمه إلى آخر. في البداية كان يتبع أضواء السيارات التي تسبقه، عندما غابت بدأ يختار اليمين أو اليسار بعشوائية، كل ما كان يهمه أن يمشي في اتجاه موازٍ لاتجاه الطريق الرئيسي.. بعد دقائق بدأ القلق يساوره. شعر برغبة في الرجوع من حيث أتى، لكنه أدرك أنه لا يعرف عن طريق العودة أكثر مما يعرفه.. عن طريق الخروج.

شعر بالارتياح عندما لمح طريقا متسعا عن بعد، يبدو أكثر ظلاما لكن اتساعه ولا شك سيوصل إلى طريق رئيسي في النهاية، كان الظلام شديدًا لدرجة أنه لم يستطع أن يتبين نهايته، ينظر متمعنا، يسير على مهل، يشعر بأضواء خافتة لا يستطيع أن يتبينها، ينظر إلى البيوت الصغيرة الموجودة على يمين الطريق والتي بدت له مهجورة.. يقرأ المكتوب على إحداها.. ({يا أيتها النفس المطمئنة}- مدفن الحاج منصور)، يبتسم ساخرا وهو يهمس لنفسه:

- مقابر.. هذا ما كان ينقصني!!

يدير رأسه إلى الجهة الأخرى.. يمد بصره إلى ما خلف السياج العالي.. يلمح الصلبان التي زُرعت فوق القباب الصغيرة، وتماثيل تمثل العذراء والمسيح فتتسع ابتسامته وهو يصيح ضاحكا:

- اكتملت.

يضغط بحركة آلية دواسة السرعة رغم أنه يؤكد لنفسه أنه ليس خائفا.. تزداد رجرجة السيارة على الطريق المليء بالحُفَر.. يهدئ من سرعته فجأة عندما يرى نورا خاطفا يعبر السماء، يتلوه صوت لم

بحر الكتب
bahr.alktob

يسمع له شبيها من قبل.. فحيح يتلوه أنين مختلط بصرخة ألم، يبدو كما لو كان يأتي من داخل المقابر كلها بلا استثناء.. يدق قلبه بعنف شديد، يزيد من سرعته غير مكترث بسيارته التي تتقافز على الطريق بعنف شديد.. يكاد قلبه يتوقف تماما عندما تميل السيارة بقسوة، لا يكاد يصدق ما حدث؛ فهنا وهنا فقط.. ثُقِب إطار سيارته.

تمالك نفسه وأخذ نَفَسا عميقا، جلس داخل سيارته يفكر، ربما يجب عليه أن يمشي بسيارته على حالها حتى نهاية الطريق، لكنه عندما فكر أنه لا يعرف أين ومتى نهاية هذا الطريق، وما إذا كانت السيارة ستتحمل إلى النهاية أم لا.. قرر أن يهدأ، همس لنفسه بكل ما يعرف عن الموتى، ونطق بكل ما يحفظ من الأشباح.أخذ نَفَسًا عميقا بعد دقائق وترجل من السيارة، ازداد هدوءًا عندما لم يسمع أي أصوات سوى صوت الليل الساكن وحشراته، أكد لنفسه أن الصوت الذي سمعه منذ قليل كان من صُنع خياله، أخرج من صندوق سيارته الرافعة والعجلة الاحتياطية، تلفت حوله بحثا عن أحجار لتثبيت السيارة، تحرك إلى جانب الطريق.. انحنى ليأخذ الحجر، صك أذنه صوت مرتعش:

- أنت!

التفت مرتعبًا، رآه أمامه يرتدي أسمالا بالية يعلو بعضها على بعض، وجهه شديد الشحوب، يمسك بعصا طويلة كعِصِيّ النُّسّاك، على رأسها صليب معلق عليه صاحبه، يلمح الرعب على وجهه فيبتسم متوددا:

- لا تخف! أين تقصد؟ مقابر المسلمين أم المسيحيين؟

بحر الكتب
bahr.alktob

- أنا تائه.

- أين تقصد؟

خرج صوته متحشرجا:

- أقصد عالم الأحياء، سأستبدل الإطار ثم أعود إلى بيتي.

بدت عليه بوادر الغضب وهو يجيب في صرامة:

- نحن عالم الأحياء.. عالمك هو عالم الموتى.

هدأ سريعا ورسم ابتسامته مرة أخرى:

- أنا سأدلك على الطريق.. اقترب.

يقترب منه في تردد.. يرفع عصاه وصليبه ليشير بهما إلى رأسه وكتفيه، يصرخ متألما وتطير العصا من يده فجأة.. ويأتي صوت أجش من خلفه:

- اتركه أيها الضال.. لا تُضِله معك!

يتراجع مبتعدًا عن العجوز في خوف وهو يرى الرجال الأربعة الأشداء بجلابيبهم البيضاء ولِحَاهم الطويلة.. يمسكون بسيوف عتيقة تقطر من أطرافها دمًا.

ابتسم العجوز مرة أخرى:

- أنتم مرة أخـرى! أقسم بالمسيح إنكم أنتم الضالون والمضلون.

يجيبه أحدهم بغضب:

بحر الكتب
bahr.alktob

- المسيح بريء منك أيها الكافر.. امسكوا به وضعوه على صليبه!

يمسكون بالعجوز وهو يقاوم، يلتفت إليه أحدهم فجأة:

- هل أنت معه؟

يهز رأسه نافيا.. فيتابع بغضب:

- مسلم أم مسيحي؟

ينقل وجهه بينهم جميعا في خوف:

- أنا تائه.. ساعدوني وسأرحل.

يتأوه العجوز:

- منذ مئات الأعوام لم يأت أحد إلى هنا ويرحل مرة أخرى يا ولدي!

يبدأ في التراجع في رعب فتوقفه نظرات نارية من عيون قائدهم، يتحرك الرجال الأربعة في آنٍ واحد.. يُخرجون من بين المقابر صليبا ضخما، يغرسونه في الأرض.. يجرون العجوز ويعلقونه عليه وهو يصرخ في ألم.

يقف أحدهم فجأة معترضا في تردد:

- هذا حرام.. إنه عجوز وأعزل ووحيد.

- إنه كافر.

يأتيه الرد وهو يتلقى صفعة قوية على وجهه فيسقط على الأرض.. ينشغل الآخرون بصلب الرجل، يقف هو مشدوها،

بحر الكتب
bahr.alktob

ارتعاده يتزايد، يقوم الساقط من على الأرض متسللا ويجذبه من يده وهو يهمس:

- هيا بنا. واحذر فإن سقطت فلن أنتظرك!!

يجري معه بين المقابر في رعب.. يخيفه التوغل فيتوقف للحظة.. يسمع صرخة غاضبة:

- امسكوا بهما.

ينطلق خلف رفيقه الذي يشير إليه ليختبئا خلف مقبرة صغيرة، وهو يحرك سبابته أمام فمه محذرا من الكلام.. تتعالى أنفاسه فيحاول أن يكتمها، يميل عليه مُنقذه:

- أي مقابر كنت تزور في مثل هذه الساعة؟!

- أنا تائه.

يتردد قليلا ثم يتابع:

- أنتم إنس أم جان؟!

نظر إليه بوجه جامد وعينين واسعتين.. قَرَّب فمه من أذنه.. هَمَس بصوت خافت كالفحيح:

- صدقني.. لن يَسُرّك أن تعرف.

يسكن مرتعدًا لثوانٍ، يرفع رأسه ليحدق في الهالات الخضراء التي ظهرت في السماء.. يلتفت ليجد رفيقه قد اختفى فيزداد ارتعاده، يغمض عينيه ويرتعش حاشدا على شفتيه كل ما يُحفظ من أجل النجدة، تتسارع دقات قلبه وهو يسمع صوت سيارة عن بُعد

بحر الكتب
bahr.alktob

وأضواؤها تقترب، يهب من مكمنه فزعا.. ينطلق نحو الطريق طالبا النجدة بحثا عن آخر أمل.. يجري ويسقط ويجري محاولا اللحاق بها.. تتعالى صرخاته محذرًا وهو يراها تتوقف إلى جوار العجوز المصلوب والرجال الثلاثة واقفون إلى جواره.. يندهش عندما يراهم يساعدونه على النزول ثم يقفزون جميعا داخل السيارة، يقف محدقا في السيارة التي بدت مألوفة وهي تبتعد.. تقع عيناه على اللحى الملقاة على الأرض إلى جوارها السيوف وعصا الناسك.. يستدير نحو سيارته.. لا يجد مكانها سوى الإطار المثقوب ملقى على جانب الطريق وفي داخله.. مسمار كبير!!

بحر الكتب
bahr.alktob

ضَفدعة الحَمَام

- أنا لست حفيد جدي!!

هكذا كان يقول لي دائما عندما يغضب مني، مستشهدا بأنني «ابن كلب مثل مَن أَنْجَبني»، فيعلو صوت جدتي غاضبا وداعيا لأبي بالرحمة؛ فيثور جدي مؤكدا أنه لو كان يسمع كلامه لما ضاع، فتغرورق عينا جدتي بالدموع وهي تقول حكمتها الخالدة:

- ليس كل ما يذهب.. يضيع.

تستطرد بعدها:

- كلاهما ذهب.. لكن أباك لم يَضِع.

فيصمت جدي وهو يترحم عليهما.

كنت أجد أنا أيضا فارقا كبيرا بين موت أبي وموت عمي، عمي مات عندما غرقت سفينة الصيد المكتظة التي كانت تبحر به هو وعشرات الشباب الذين كانوا يحاولون السفر إلى مكان ما أعلى الخريطة، لم يعد أحد من أهل الشارع يذكره، أما أبي.. فما زال الجميع يترحم عليه كلما رأوا اللافتة التي تحمل اسمه.

بحر الكتب
bahr.alktob

- اذهب لإطعام الحَمَام.

كانت هذه هي أثقل المهمات على قلبي، عندما كنت صغيرا كنت أستمتع بها، أضع الحبوب والملح للحمام، أنتظر بعدها لأراه يطير، لكنه لم يكن يفعلها؛ كان يمشي متثاقلًا كالدجاج السمين، يقفز إلى سور السطح أو على أقصى تقدير يطير بصعوبة إلى الأسطح والشرفات المجاورة، بعد العصر أصعد أنا مرة ثانية.. ألوح له بالعَلَم الأحمر الكبير فيأتي؛ واحدة تلو الأخرى، قافزا وسائرا.. ما زلت أذكر حتى الآن عندما ضربني مدرس العلوم وأنا في بدايات المرحلة الابتدائية، طلب منا التوصيل بين الكائنات المتشابهة.. فوصلت بين الحمام والضفادع، وقلت له بكل ثقة إن الحمام يقفز ولا يطير!!

أول مرة فهمت فيها ما يحدث عندما رأيت جدي يقص ريش أجنحته، يومها بكيت وأنا أسأله:

- لماذا؟

- لكي لا يطير بعيدا.

- خُلِق ليطير.

- ما أفعله لن يمنعه من الطيران، ولكن سيمنعه من الابتعاد.

- ولماذا تقص ريش البعض وتترك البعض.

فيبستم جدي وهو يغمز بعينه:

- هؤلاء لا خوف عليهم.. تزاوجوا.. وباضوا.. سيعودون من أجل البيض.. ومن أجل الإلف.

بحر الكتب
bahr.alktob

كرهت الحَمَام بعدها، كرهت سكونه وهدوءه وضَفدعته، وكرهت نفسي وأنا أضع له طعامه، وكرهتها أكثر وأنا أُلوِّح لهم بالعَلَم كما لو كنت أضعهم بيدي في الفخ، لكني لم أكره جدي أبدا.. كنت أحبه لأنه أبي وجدي في آنٍ واحد، أذكر نهنهته وهو يحتضنني ويبكي بعد أن دفعه والدي بعيدا ونزل لنجدة الدكتور غانم صاحب صيدلية الخدمة الليلية الوحيدة في منطقتنا ضد لصوص هاجموه ليلا.. لم يفتح أحد من أهل الشارع (الجدعان) نافذته، سمعت بعدها الكثيرين يُقسمون في فخر إنهم رأوا كل شيء من خلف النافذة، يحكي كل منهم للآخر كيف انهال أبي عليهم ضربا.. إلى أن جاءته طعنة غادرة أرْدَته قتيلا على الفور، ففر اللصوص، جدتي تقول إنه هزمهم حيا وميتا، وإن الكل يعرف أن في هذا الشارع ترفرف روح بطل، فمن يومها لم يدخله لص أبدا، وما زالت الصيدلية التي تَغَيَّر اسمها إلى اسم أبي تعمل خدمة ليلية.

أصبح جدي هو كل شيء لي، لم أشعر بالغضب منه سوى مرة واحدة؛ كنت أظنه يقص ريش الحمام فقط، كدت أُجن وأنا أراه يبتر جناحَيْ ذكر الحَمَام الأبيض الذي عاد إلى السطح بعد غياب ثلاثة أيام كاملة، تركه يقطر دما ويترنح كالمخمور إلى أن مات، فعلها في الخفاء، لم ولن يعرف أنني كنت أراقبه من وراء البرميل.

الغريب أن جدي لم يكن يأكله ولا يتاجر فيه، كان يفتخر فقط بأنه أفضل من رَبَّى الحَمَام في العالم؛ ويدلل دائما على ذلك بأن حمامه لا يرحل عنه، ويعلله بأن طيوره تحبه، انتهزت يوما قال فيه هذه الجملة وسط جمع من أصدقائه.. قاطعته في تردد:

بحر الكتب
bahr.alktob

- جدي.. الحَمَام لا يرحل لأنك تقص ريشه!!

انطلَقَتْ ضحكات أصدقائه فرماني بنظرة نارية وهو يقول بصوت حاد:

- أَفْعَلُها في البداية، لكن بعدها يحبني.

- الحَمَام لا يحبك يا جدي.

تعالت ضحكات أصدقائه.. أمسك بنعله وألقاه عليَّ في غضب، جرحني في رأسي، انسابت دموعي ودمائي فَخَيَّم الصمت على أصدقائه، صرخت باكيا:

- أتحداك أن تترك له ريشه وسترى.

انطلقتُ أجري وصوته يأتي من خلفي:

- يمين بالله العظيم لن أقص ريش الحمام مرة أخرى.

ثم تابع:

- وسترى!! ابن كلب مثل الذي أنجبك.

بعدها لم يعد جدي يقص ريش الحَمَام، أصبح فقط يفرط في وضع الذرة والقمح والحبوب، والخبز الجاف والملح والكمون، كنت أراقب ما يحدث وأنا مندهش.. الحمام لا يطير بعيدا!! بل ويتجمع حول جدي عندما يقبل عليه وفي يده حفنة من القمح، يراني وأنا أنظر إليه في دهشة فيلقي عليَّ نظرة شامتة ساخرة.. لسبب ما رأيت فيما يفعله جدي نوعا من أنواع الغش، قررت أن أغش أنا أيضا، سأعلم الحَمَام الطيران.. أصبحت أتسلل في أوقات لا يكون هو موجودًا وأمسك به وأقذفه في الهواء، يدهشني أنه يرفرف بجناحيه

بحر الكتب
bahr.alktob

كما لو كان يقاوم قدرته على الطيران، توقفت عن ذلك تماما عندما قذفت زوجا ممتلئا إلى أعلى فرفرفا بأجنحتهما بتكاسل وهبطا في شرفة مقابلة.. نظرتْ إليَّ جارتنا بشفقة وغضب ثم قالت:

- الحمام لا يطير غصبا.. أنت حفيد جدك!

لم أكررها بعدها مرة أخرى..هزمني جدي، وهزمني الحمام فزهدت رؤيته، لم أعد أصعد لأراقبه ولا لألوح له بالعَلَم، هو لا يبتعد كثيرا على أي حال، سنوات طويلة مرت إلى أن اضطُرِرت إلى إطعامه مرة أخرى، بعد أن هرم جدي وأصابه ما يجعله ينساني وينسى الحَمَام وينسى الطريق، لم يعد يذكر شيئا عن رهاننا ولا عن طيوره.. ولم أجد فائدة في أن أخبره أن كلانا خسر وأن الحَمَام انتصر في النهاية، بقي منه ما بقي وطار ما طار، لم يبد عليه أنه سمعني عندما ناديت عليه ليرى طيورا جديدة أدهشتني لأنها لا تبيض في «العشة»، وأدهشتني أكثر عندما انطلقَتْ مبتعدة يوما فبدا لي أنها لن تعود، ولم تعد مرة أخرى.. تركت أمان العشش وخلعت جلود الضفادع وانطلقت تشق بأجنحتها زُرقة السماء الواسعة. جدي نفسه رحل! استيقظنا في يوم لنجده غادر في الفجر، ولم نعرف طريقه بعدها ثانية.. بكيته أيامًا عديدة ثم صعدت إلى «العشة»، وأطلقت ما بقي فيها من الحمام العجوز.. أشعلت فيها النيران ليطير ما تبقى، وجمعت ما وقف ينظر إلى النار في بلاهة وأنا أسبه وألعنه. بعته في سوق الطيور بثمن بخس، لكنه كثير عليه بحسابي أنا، دفعت ما جمعته من مال صدقة وأنا أدعو لجدي بالسلامة.. عدت إلى جدتي باكيا فاحتضنتني في قوة وهي تغمغم بصوت يشبه الهديل:

- ليس كل ما يذهب يضيع!!

بحر الكتب
bahr.alktob

صورة دم كاملة

- خيانة عظمى.. قلة مندسة تستحق محاكمة عسكرية!!

قالها ثم أطلق ضحكة لم يلحظ أحد ما يملؤها من الانكسار.

ابتسم الطبيب في هدوء وهو يطوي تحاليله.. عقب هو في حيرة وخوف:

- سرطان في الدم؟

هز الطبيب رأسه نافيا:

- مرض مناعي.

نظر إليه هو في حيرة أكبر فعقب الطبيب وهو يبتسم مشفقا:

- الخلايا الدفاعية في دمك بأكمله تهاجم جسدك.. بِلُغتك أنت: حرب أهلية.

ابتسم هو أيضا.. وأفلتت من الممرضة ضحكة قصيرة.. بدأ على أثرها الطبيب يحكي لها ما يعرفه عن هذا الرجل المكدود الراقد

بحر الكتب
bahr.alktob

على السرير في ضعف.. عن الحروب التي خاضها وعن الجنود الذين تعلموا منه الكثير.

بدا الإشراق على وجه المريض وهو يسأل في حيرة:

- أنت تعرفني؟!

- جندي مجند طبيب سامح الناظر يا فندم.. أحد رجالك في مركز التدريب.

تزداد ابتسامته اتساعا.. يجلس الطبيب على طرف السرير ويبدأ في الحكي معه: أيام التدريبات.. طوابير الذنب.. تدريبات ضرب النار، كان يشرف بنفسه على كل شيء، يقلد الطبيب لهجته عندما كان يقول:

- تعلموا القتال من أجل الحرب.. وتعلموا الشرف من أجل السلم والحرب!!

يضحكان سويًا.. يبدو على الطبيب حبٌّ حقيقيٌّ للرجل وهو يؤكد:

- أردت لولدي أن ينضم إلى القوات المسلحة ليصبح مثلك؛ لذلك أرسلته إلى مركزك الخاص لأؤهله للقبول.

امتقع وجه المريض تماما.. ماتت ابتسامته وهو يسأل:

- هل قُبِل؟

هز كتفيه في لا مبالاة:

- لا.. رغم أننا دفعنا الإكرامية «الكبيرة».. لكنه لم يُقبل.

بحر الكتب
bahr.alktob

أجاب المريض بانفعال:

- لكنه استعاد نقوده.

هز الطبيب رأسه مؤكدا:

- طبعا.. زوجتي كانت تقول إننا لن نستعيد المال.. وأنا ضمنتك.. الآن تضرب بك المثل لكل أقاربنا في الشرف.

خيم عليه الصمت بمجرد أن غادر الطبيب.. امتدت أصابع الممرضة الرقيقة التي بدا واضحا عليها أنها استشعرت قيمة مريضها فزاد احترامها له عشرات المرات.. عينة جديدة من دمه ستذهب إلى المعمل لتقر حقيقة جديدة.. تسحب الدماء في السرنجة الشفافة.. داكنة دماؤه وهي تُكَوِّن دوامة صغيرة إلى أن تملأ المحقن، تضع قطعة صغيرة من القطن وتطلب منه أن يضغط بهدوء، يرفع القطنة فتسيل بضع قطرات من الدماء.. ينظر إليها في حيرة!

الدم.. ذلك الكائن الخارق اللزج الذي طالما رآه زاحفا على رمال الصحراء الساخنة مختلطا بها لتنبعث من الخليط رائحة المسك.. رآهم وسمعهم هناك عشرات المرات.. كان يشعر بأن أرواحهم أيضا تسيل إلى أعلى ببطء يتحكمون هم فيه، يبدءون بالحديث إلى الله.. ثم يحاورون أحبابهم.. أمهات وأبناء وزوجات.. ثم تمتد الأصابع لتوحد أو لتُصَلِّب.. ثم يأتي الموت رفيقا هادئا مهذبا، كما لو كان ينتظر انتهاءهم من طقوسهم ليتقدم.. حتى مَن كانوا يموتون على الفور.. كان يرى موتهم أرفق كثيرا من جراحهم.. وكان يؤمن أن هؤلاء مَن كانوا يطلبون موتا سريعا لذلك ينالونه.. فهؤلاء يأمرون فقط!

بحر الكتب
bahr.alktob

تمتد يده لتمسح دماءه السائلة على ذراعه.. يفركه بين أصابعه قبل أن يقربه إلى أنفه ليشم رائحته.. يبدو عليه الامتعاض؛ منذ أيام الحرب لم يشم رائحة الدم إلا عندما جاء إلى هذا المستشفى.. ما هذه الزَّفَارة التي يشمها؟!

يغمض عينيه على نهاية حياته التي أحبها بإحالته إلى التقاعد، اكتشف أن أبناءه لم يتعلموا أي شيء منه، وأن صوته الذي كان يرهب عشرات الرجال لا يعني أي شيء في بيته.. وأن «سخافات» الضبط والربط التي يعرفها جعلته غير مرغوب فيه.. في بيته.

- لماذا لا تبدأ عملا خاصًّا؟

قالتها زوجته وهي تبتسم في رِقّة بعد أن رفض عشرات من عروض العمل التي جاءته بناءً على خبرته العريضة والحروب والبطولات والدماء والوقوف على بُعد سنتيمترات من الموت في ثبات، لم تفهم وقتها كيف يقول «لا» لمثل هذه الأندية والفنادق والشركات، وكيف كان يرضى برمال الصحراء ولا يرضيه المكتب المكيف؟ عندما شكت لصديقاتها مَنَحُوها فكرة أن يبدأ مشروعا خاصا، هز رأسه في حيرة، صارحها بأنه لا يجيد أي شيء سوى إعداد المقاتلين، فجاءه الحل على لسان ولده.. أن يفتتح مركزًا لإعداد الطلاب للكليات العسكرية.

الأمر لم يكن صعبا؛ إيجار ملعب أثناء الصيف، تعيين بعض المدربين، واسمه ورتبته سيكونان أساس الدعاية.. أول عام كان أصعبها عليه.

- الشقة، والسيارة، والنادي، والفندق.

بحر الكتب
bahr.alktob

كاد يُجَن وهو يسمع هذه المتتالية في إجابات طلابه على سؤاله الذي كان يبدأ به:

لماذا تريد أن تكون ضابطا؟ يلعنهم جميعا وهو يسأل في حيرة: هل هذا كل شيء؟ ألا توجد أشياء أهم؟! فيصمتون جميعا.

وعندما أجابه أحدهم ساخرا:

- طبعا يوجد أهم يا فندم؛ مكافأة نهاية الخدمة.

غضب وقرر أن يطرده من المركز.. حتى بعد أن عرف من معاونيه أنه سدد بالفعل كامل المبلغ، وأن هذا سيسيء لسمعة المركز. في العام الأول كانت الخسائر فادحة؛ فهو استبعد أيضا كل مَن لا يستحقون أن يصبحوا جنودا في جيش حارب هو فيه يوما.. كان يرد نقودهم وهو يقول في صرامة:

- أنا يا بني لو رأيتك أثناء الحرب في جيش العدو سأربطك وأجرك خلفي كالمعزة، ولو أنك في جيشي فسأقتلك لكيلا تفضحنا.

المضحك الذي أبكاه يوما هو أن كل الشباب الذين كانوا يجيئون له في المركز لا يستحقون أن يصبحوا حتى خفراء لحراسة قطعة أرض بور؛ لذلك لم يبقَ له سوى ثلاثة طلبة فقط.. عندما جاء ميعاد دفع الإيجار وعى الدرس الذي أملته عليه زوجته؛ قالت له بصراحة:

- افعل كما يفعل الناس.. نحن أيضا في حرب من أجل أولادنا.

لا يذكر تحديدا متى وضع خطة الحرب.. ربما وضعها كل مَن حوله وكل ما أصبح عرفا مقبولا.. بدايتها كانت في العام الجديد..

بحر الكتب
bahr.alktob

قَبِل الجميع رغم أنه كان يعرف أن قبولهم في الكلية ضرب من المستحيل.. لا سيما ذلك الشاب الذي كان أبوه تاجرَ سيارات شهير.. جاءه في نهاية مدة التدريب.. وضع في يده مظروفا ضخما وهو يهمس:

- نَفَسك معنا يا سيادة اللواء.

عندما فتح المظروف في بيته وجد فيه شيكًا بآلاف من الجنيهات.. أراه لزوجته وهو في قمة غضبه.. ابتسمت بنعومة وهي تقول:

- سبحان الله.. جهاز البنت.

نظر إليها في دهشة.. سألها في حذر:

- تريدينني أن آخذ رشوة؟

هزت رأسها نافية.. قالت له إنها ليست رشوة بل «حلاوة».. نصحته بأن ينتظر إلى أن تظهر النتيجة.. يقبل الحلاوة إذا قُبِل الشاب.. ويردها (بشرف) إذا لم يُقْبَل.. نظر إليها باحتقار.. نظرت إليه باحتقار أشد وهي تنفث غضبها:

- قرفتنا!!

في اليوم التالي اتصل بالرجل طالبا منه أن يأتي ليأخذ نقوده.. رفض الرجل في بساطة وهو يقول كلاما يشبه كلام زوجته:

- هذه هدية يا سيادة اللواء؛ محبة.. وأنا متأكد أن مكالمة صغيرة منك من أجل ولدك ليست كثيرة عليه.. وإذا كنت لا تريد.. حلال عليك الهدية.

بحر الكتب
bahr.alktob

بمجرد أن أغلق الهاتف وجد زوجته وابنته أمامه.. كانت الشابة تضحك في حبور وهي تقول:

- ماما قالت إن هناك مفاجأة لي.

ابتسم في حرج.. في اليوم التالي صرف الشيك.. عندما رأى فرحتها هدأ قليلا.. وعندما قَبَّلت يده لأول مرة منذ سنوات لمعت الدموع في عينيه وهو يشعر بحلاوة «الحلاوة».. بعد شهر واحد جاءه القسط الثاني من الهدية.. بعد أن دخل الشاب الكلية الحربية.. هز كتفيه في دهشة وهو يقول:

- نصيب.

الحسبة كانت تقول إن ما أخذه من أبي الولد كان يساوي ما أخذه من كل الطلبة.. في العام التالي كان الحلاوة تتزايد بعد أن أشاع الرجل بين أصدقائه أن سيادة اللواء كَلِمته لا تُرد.. خمسة مظاريف بخمسة طلاب دخل منهم ثلاثة ورد هو ظرفين ودفع مصاريف جامعة الابن بسعادة مشوبة بالشك.. في العام الرابع أصبح هو شخصيا يشيع بين الطلبة أن كلمته لا تُرد..توالت عليه المظاريف.. كان يضعها في درجِهِ بمنتهى الأمانة.. يؤكد للجميع أنه سيستخدم اتصالاته لتسهيل قبولهم.. يوم النتيجة كان يرد كل المظاريف التي لم يحالفه فيها الحظ.. أحيانا كان يفكر أنه نصاب.. يرفض الفكرة سريعا وهو يغمغم:

- أنا لم أضرب أحدا على يده.

خرجت منه آهة وهو يشعر بمغصة شديدة في بطنه.. كيف

بحر الكتب
bahr.alktob

فسدت خلايا جسده؟ ما الذي يجعلها تأكل في جسده؟ قام متثاقلا ليدخل الحمام.. خلع «الكانيولا» من يده فرأى دماءه تسيل.. ابتسم وهو يقول:

- ربما قَبِل جهاز المناعة الهدية.

جلس يفكر فيما كان يقوله له الطبيب: السبب.. لا يوجد، العلاج.. محاولات، النتيجة.. غير معروفة، لكن الدواء سيضرب كل الخلايا حتى الشريف منها؛ ففي زحام الخلايا لا يمكن التمييز.

في اليوم التالي طلب من زوجته أن تأتي له بحقيبته الخاصة التي تُفتح بأرقام لا يعرفها سواه.. أحضرتها في لهفة.. انتظرت أن يفتحها لكنه لم يفعل إلى أن غادرت في خيبة أمل.. جلس على طرف السرير في حماس.. أخرج كشوف الطلبة الذين درسوا عنده على مر السنوات.. قرر أن يرد لهم جميعا نقودهم في حماس.. هم كثيرون، لكن الأموال أيضا أصبحت كثيرة.. لن يكون صعبا الوصول إلى أماكن عملهم.. كتب شكوى مفصلة للأمانة العامة يحدثهم فيها عن سوء الاختيار.. أردف أن المقاتلين الذين رآهم دائما كانوا عبد الرحمن ومحمود وجرجس ومندور.. أما بودي وميدو وجو وماندو، فغالبا لن يفيدوا كثيرا في الحرب.

غادر المستشفى بعد أيام رغم اعتراض الطبيب.. سَلَّم شكواه وأخبر زوجته عن نيته.. هددته بأنها ستحجر عليه لكنها لم تحتج أن تفعل ذلك؛ لأن كل شيء كان باسمها.. وهدده الضابط الذي حقق معه في الشكوى بتحويله إلى مستشفى الأمراض العقلية..لكنه لم يحتج أن يفعل ذلك؛ لأن كل مَن رأوا الشكوى من القادة ضحكوا واتهموه

بحر الكتب
bahr.alktob

بالجنون.. بعد الطلاق ابتعد هو.. انتقل إلى الأرض الصحراوية الصغيرة التي كان اشتراها والتي لم تهتم يوما زوجته بكتابتها باسمها.. وجد نفسه هناك.. أصبح يدرب أبناء الفلاحين من أجل دخول الكلية مجانا.. ويكلم كل مَن يعرفهم ليساعدهم في الدخول.. عادة كان يفشل، لكنه كان راضيا.. وفي اليوم الذي سحبت فيه الممرضة عينة جديدة من أجل متابعة حالته التي تحسنت كثيرا، فرك في يده نقطة الدم التي خرجت بعد أن رفع القطنة. ابتسم في ارتياح عندما وجد دماءه تفوح بالرائحة التي يعرفها؛ رائحة المسك!!

بحر الكتب
bahr.alktob

عيون.. وآذان.. وألسنة!!

الشرفة في الدور الثاني.. في منتصف مبنى الخدمات الإداري للمعسكر تماما؛ أي أنها مكشوفة جيدا للدور الثاني والثالث والرابع؛ ربما لهذا يتغير سكان هذه الشرفة كثيرا، أو قد تكون مصادفة. عندما دَخَلَتْ مع أبويها لأول مرة، كانت سعيدة بالشقة الجديدة.. بمجرد أن فتح الباب أخذت تجري في أرجاء البيت بسعادة غامرة، فتحت الشرفة ودفعت جنبيها بعنف وهي تضحك جَذِلة.. تنسمت الهواء الذي اندفع داخلا ورقصت في سعادة وهي تنطلق لتُقبّل وجنتَيْ أبيها الذي بدا على ملامحه الفخرُ وإن تظاهر بغير ذلك . تدور في أرجاء المنزل.. مرة ومرة ومرة.. لم تلحظ عشرات العيون المحملقة فيها بخليط من الرغبة والحرمان، على مقربة من تلك العيون ألسنة نقلت ما ترى.. وآذان سمعت الحديث.. ساكنة جديدة في شرفة الدور الثاني.. جميلة ورشيقة ترتدي ملابس خفيفة وترقص والشرفة مفتوحة!!

في اليوم التالى عندما خرجت بملابس النوم لتستقبل أول نهار لها في البيت الجديد كانت العيون قد تضاعفت؛ كل نوافذ

بحر الكتب
bahr.alktob

المبنى الإداري كانت فيها رءوس تتطلع إلى الدور الثاني.. حتى نوافذ الحمامات. رأس أو اثنان أو رأس ونصفان يتزاحمان من أجل الرؤية.. فزعت لأول وهلة عندما رأت كل هذه العيون.. بعضها راغب، وبعضها وقح، وبعضها فضولي.. وبعضها يفعل كالآخرين.. فزعت لأول وهلة.. دخلت مضطربة وأغلقت الشرفة بعنف فتعالت ضحكات ساخرة سمعتها عن بُعد.

- يا أمّا.. ما تخافيش يا حلوة.. ما خلاص شوفنا كل حاجة.. تلاقيها داخلة تلبس.. يمكن داخلة تقلع.. وتتعالى الضحكات!!

أثارت ضحكاتهم غضبها.. ولأنها صغيرة برغم أن جسدها الذي اكتمل مبكرا يضيف إلى عمرها بضع سنوات في التقدير، ولأنها مشاكسة وعنيدة كحواء صغيرة وجميلة.. وقفت تتلفت حولها للحظات ثم جرت إلى غرفتها.. ارتدت ملابس مختلفة ثم خرجت مرة أخرى إلى الشرفة، هذه المرة قررت أن تهاجم لا أن تدافع؛ بمجرد خروجها تدافعوا جميعا إلى النوافذ كالذباب.. وقفوا يحدقون فيها، وهي تحدق فيهم.. نفس النظرة التي تسلطها على أبويها في تحدٍّ عندما تختلف معهما، والتي تنتهي غالبا بضحكات عالية من الأب أو بأن تقذفها الأم بأقرب شيء تطاله يدها.

عندما أطالت النظر إليهم بدأت التعليقات.. بعضهم سخر منها.. وبعضهم وصفها بأن عينها «تِنْدَب فيها رصاصة».. لكنها ظلت تنظر إليهم وتتحدى كلماتهم السخيفة إلى أن فروا فجأة جميعا من مواجهتها.. ضحكت في سعادة وهي تغلق الشرفة معلنة

بحر الكتب
bahr.alktob

لنفسها أنها انتصرت.. لم تعرف أن الأمر وراءه توافد الضباط إلى المكتب.. والذي قد يتبعه وصول القائد في أي لحظة.

بمرور الأيام كانت اللعبة تتطور.. قذفها أحدهم مرة بحصاة صغيرة فأمطرت المبنى بوابل من البيض الذي سحبته من الثلاجة.. وسبَّها أحدهم فصرخت بصوت عالٍ: الله يسامحك، وهي تضحك.. وسمعها الأب فنهرها في لا مبالاة. عندما جاء عيد ميلادها الثاني عشر انتظرت في خيبة أمل أن يشتري لها أبوها عروسة مثل كل عام.. صرخت ضاحكة وهي تنظر إلى هديتها؛ بندقية بلاستيكية تشبه بنادق القناصة، ونظارة معظمة، وحاملَيْن لتضعهما عليهما.. قفزت إلى حضن أبيها الذي ابتسم وهو يقول:

- عدة الحرب.. أنتِ الآن أجهز منهم.

علق الابن في دهشة:

- تبدو حقيقية.

نظرت الأم إلى زوجها في عتاب وتسليم.. وهي تهمس:

- الآن عرفتُ من أين ورثتْ جنونها!!

في اليوم التالي كانت تقف بتحد في الشرفة وعلى وجهها ابتسامة ساخرة.. ثبتت بندقيتها ومنظارها ووضعت خلفهما عَلَمًا كبيرا اشتراه أخوها من أجل مباريات الكرة.. عندما ظهر أول زوج من العيون وقفت تحدق فيه وهو يحدق فيها ويبتسم.. مالت على منظارها فرأته قريبا فهزت رأسها في دهشة وهي تضحك ساخرة.. شعر بالحرج فانطلقت يداه لتعدل من هندامه ويغلق أزرار سترته

بحر الكتب
bahr.alktob

ليخفي «فانلته» الممزقة، انطلقت ضحكتها أعلى فاختفى من النافذة في غضب، في اليوم التالي كان أبوها على باب المعسكر طالبا مقابلة القائد.. حكى له ما حدث في مساء اليوم السابق عندما خلع واحد من الجنود ملابسه بأكملها وقفز فوق المكتب يرقص عاريا مُرْسِلا لابنته عشرات القُبُلات في الهواء.. تحولت ضحكات القائد إلى غضب عندما داعبت خياله صورة ابنته العنيدة التي في عمر الصغيرة.

في اليوم التالي كانت كل النوافذ مغلقة «بكراتين» داكنة بأمر القائد، وكان كل الجنود يمشون في المعسكر ورءوسهم إلى أسفل؛ فالأمر واضح؛ مَن سيُمْسَك متلبسا برفع رأسه إلى الشرفة المقابلة سيُعَاقَب بالحبس أسبوعا كاملا.. نزل هو بنفسه ليتفقد الأمور، وعندما رفع رأسه إلى أعلى رأى الصغيرة تقف في الشرفة بين أُسْرتها فابتسم لها في أُبوة.. تعلقت عيناه بعَلَمها الكبير فأدى له التحية وهو يضحك من جنون الصغار.

في المساء كان كل الجنود يتحدثون عن القائد الذي أدى التحية العسكرية لفتاة الشرفة، انطلقت حوارات متعددة تتحدث عن نقطة مراقبة للقيادة وعن ذكاء رجال المخابرات العسكرية، وعن بندقية القناصة التي ستنطلق رصاصتها بلا رحمة في رأس كل مَن يفكر في التمرد.. وعن الفتاة التي تختفي وراءها كتيبة من رجال الأمن الوطني الذي لا يرحم.

بمرور الأيام ملَّت الفتاة اللعبة لانسحاب الأعداء، لم تعد تخرج إلى الشرفة إلا لمامًا بعد أن أصبح الجنود الجدد - الذين لا يعرفون

بحر الكتب
bahr.alktob

إلا ما سمعوه - يمشون برءوس مطأطأة أمام الشرفة، ويختلسون النظر إلى البندقية والمنظار في خوف، وعندما جاء القائد الجديد أنصت جيدا لكل ما قاله له جنود الكتيبة.. وهز رأسه في فهم عندما أقسم له كبير ضباطه إن آخر ما فعله القائد القديم بعد ترقيته أن تجول في كل ركن من أركان وحدته التي قضى فيها رقما قياسيا يقدر بعشرة أعوام، وإنه رفع رأسه إلى الشرفة ووقف ينظر إليها في صمت ثم أدى التحية العسكرية وعيناه تلمعان، من يومها.. أصبح القائد الجديد ينزل كل يوم في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ الجنود، يقف أمام الشرفة وقفة الانتباه، ثم يؤدي التحية بثبات.. ينطلق بعدها مهرولا إلى مكتبه وهو يلعن الصغيرة ومَن خلفها.. متسائلا: هل كانت تُخرج لسانها للقائد السابق أيضا كلما رأته.. أم أنه أخطأ.. في شيء ما؟!

بحر الكتب
bahr.alktob

أمر عابر في نهاية اليوم

كان الأمر خطيرا، والأعصاب متوترة، والدخان الكثيف يملأ الغرفة، وأعضاء مجلس الإدارة يتوالون في الدخول واحدا تلو الآخر.. ومدير أمن المجموعة؛ والذي كان لواءً سابقا عاصر حروبا ثلاثًا، قد أتى على عَجَل، ورئيس رابطة العمال في المجموعة يعلن أن الأمر خارج السيطرة، ومديرة مكتب العضو المنتدب تُجري عشرات الاتصالات بكبار المساهمين لتتأكد إذا ما كانوا سمعوا بالأمر أم لا.. والمدير المالي يجلس أمام جهاز الكمبيوتر يُجري عشرات العمليات الحسابية وقد وضع سبحته الطويلة على يمينه.. وكان عطية يفكر في شيء واحد؛ أن ميعاد عشائه قد فات!!

خبط رئيس مجلس الإدارة على المائدة الخشبية في غضب وهو يسأل رئيس العمال عن كيفية حدوث ذلك، فيتلعثم الرجل وهو يقول كلاما غير مترابط، فيشير إليه الكبير ليصمت معقبا بكلمة واحدة:

- أنت هتروح في ستين داهية!!

بحر الكتب
bahr.alktob

أمّن مدير الأمن على كلامه.. شرح لهم أن ما حدث يُعد اختراقا صارخا لقواعد الأمان والتأمين في المجموعة.. أخرج من جيبه ورقة صغيرة فيها أسماء الرءوس المفكرة التي تقف وراء إضراب العمال الشامل واعتصامهم وكيفية تصاعد الأمور إلى أن وصلت إلى درجة حرقهم لمخازن مصنع «٤» الشرقي.. وتكسيرهم لمكاتب الإدارة في مصنع «١»، وبسط الأمر كثيرا فيما يخص العامل الذي أصيب بجروح متوسطة على يد رجال الأمن.. أنهى كلامه بجملة واحدة:

- أنا هاكلم وزير الداخلية شخصيا.. ساعة زمن وهيكونوا كلهم في المعتقل...

قاطعه المدير المالي غاضبا:

- مش عاوزين فضايح.. لازم نلم الموضوع بسرعة.. الحكاية لو اتعرفت أسهم الشركة في البورصة هتقع.. يعني إحنا اللي هنروح في ستين داهية.. موقفنا المالي لا يحتمل انهيارات القيمة السوقية للسهم.

هز الجميع رءوسهم في فهم أو حسرة أو غضب.. غطى العضو المنتدب وجهه بكفيه، مد يده وفتح الثلاجة الصغيرة الموجودة تحت مكتبه وأخرج زجاجات العصير، وزعها على الجالسين من حوله.. بعضهم فتحها وشرب، وبعضهم تركها أمامه.. نظر عطية إلى زجاجات العصير، فجرى ريقه.. فكر أن يطلب واحدة من العضو المنتدب، لكنه آثر السلامة.

عطية هو ساعي المكتب.. شابٌّ ثلاثيني يعاني من سمنة مفرطة.. وجهه مستدير وأبيض.. يبدو عليه ما يصفه البعض بالطيبة،

بحر الكتب
bahr.alktob

وما يصفه الكثيرون بالبلاهة.. خطواته سريعة متقاربة قصيرة.. يهتز معها كرشُه وإلياته.. غالبا ما تراه يصطدم بأحد ما أو يُسقط شيئا أو يتعثر في عائق خفي.. على وجهه دائما قطرات عرق صغيرة، وعلى ملابسه آثار بقع العرق الكبيرة التي تظهر تحت إبطيه ممتدة حتى نهاية قفصه الصدري وأسفل عنقه؛ لتبدو حدود فانلته الداخلية الواسعة واضحة ومحددة تماما للجميع.. مثيرة شعورا مقززا بأن رائحته كريهة.. لكنها لم تكن كذلك. كان يضع تحت إبطيه دائما خليطا من «الشبّة» ومزيلات رائحة العرق الرخيصة.. لم ينجح الخليط في وقف تدفق العرق، لكنه نجح في جعله متعادل الرائحة.. ظل بُقعًا متجددة محرجة.. عندما يحاول أن يرتدي ملابس غامقة يترك الخليط خطوطا مقيتة من الملح.. وإذا ارتدى ملابس فاتحة.. تصفر سريعا تاركة آثارا واضحة.. لم يعد عطية بعد عدة سنوات يهتم بعرقه.. فأصبح واحدا من سماته.

- أنت عاوز شوية الكلاب دول يفلتوا بعملتهم؟!

قالها مدير الأمن بغضب. أجابه المدير المالي في حدة وسبحته تجري بين أصابعه:

- وأنت عاوز الشركة تخرب علشان تعلمهم الأدب؟!

- دول ولّعوا في مخازن الشركة.

أجاب المدير المالي في حدة:

- المخازن فاضية.. والتأمين هيغطي التكاليف، المهم الأسهم ما تقعش.

بحر الكتب
bahr.alktob

بدا على المدير التفكير العميق، ساد الصمت للحظات.. انتهز عطية الفرصة وهو يقول:

- ممكن أروح اتعشى وآجي يا فندم.

نظر إليه الرجل في استياء.. شعر عطية بالقلق.. ثم بالحرج عندما عاجله:

- أنت ماعندكش دم يا عطية.. إحنا في إيه ولّا في إيه!!

تتابعت الصيحات مؤنبة عطية الذي بدا عليه الحرج.. بدأ العضو المنتدب يضحك ساخرا وهو يقول:

- شوفوا العجل ده كمان اللي همه على بطنه.. شايف اللي إحنا فيه وبيقول لك العشا!!

نظروا إليه باحتقار.. واختلس اللواء نظرة حادة إلى المدير المالي الذي تجاهله، أما عطية فقد تراجع إلى الخلف وألصق ظهره إلى الحائط ووقف منتظرا الفرج. كان عطية يجلس في غرفته الموجودة في السكن الملحق بالمجموعة عندما جاءه أحد أفراد الأمن يجري ليخبره أن العضو المنتدب في المكتب يطلبه فورا لأن هناك مصيبة، ظن عطية أنه طرف في المصيبة.. كان قد أنهى استعداداته للعشاء وأعد كيس الفول.. وقَطَع لقمة من الرغيف لكنه لم يجد وقتا كافيا ليضعها في فمه، انطلق يجري مهتزا كطبق المهلبية نحو مكتب الإدارة، هناك اكتشف أنه ليس طرفا في أي شيء؛ إضراب للعمال وحريق في المخازن.. لكن المدير طلبه لكي يحقق طلبات السادة.. فلا يمكن أن يكون هناك تجمع على هذا المستوى بدون ساعٍ..

بحر الكتب
bahr.alktob

وعطية معروف لدى الجميع أنه لا يسمع ولا يرى ولا يتكلم؛ لذلك هو الوحيد الذي يُسمح له بالتواجد في الاجتماعات عموما.. وفي مثل هذا الاجتماع بالتحديد، أما عن المدير وأعضاء مجلس الإدارة فيرون أنه لا يفهم؛ لذلك وقع عليه الاختيار.

- أنا عندي الحل.

التفتت إليه كل العيون في تَرَقُّب.. كان هذا هو أول ما ينطق به منذ دخل.. فهو حتى لم يُلقِ السلام، بل دخل مرتديا سترته السوداء التي يلمع عليها شعار الحزب، جلس يراقب ويبتسم ساخرا من آنٍ لآخر.. الكل ينتظره ويعرف جيدا أنه ثعلبُ المجلس، وأن رأسه تساوي عشرات السنين التي قضاها في السياسة القذرة؛ لذلك أنصتوا له جميعا:

- رجالتنا ممكن يدخلوا في النص.. وتقلب خناقة.. والعيال دية تاخد علقة.. وبعدين الشرطة تيجي تفض.. بس هيكونوا اتعلموا الأدب.

بدا على العضو المنتدب إعجابه بما قيل.. إلا أن المدير المالي مرة أخرى أبدى مخاوفه من أن الأمر سيؤثر أيضًا على أسعار التداول.. ربما ليس بنفس القوة لكنه سيتأثر. أشاح صاحب الفكرة بيده غاضبا وهو يقول:

- خلاص.. خليكو كده للصبح.

دق قلب عطية في عنف عندما سمع هذه الجملة الأخيرة، تساءل هل يمكن أن تستمر هذه الجلسة حتى الصباح.. وهل سيتحمل

بحر الكتب
bahr.alktob

جوعه أم سيثور في لحظة ويغادر ليأكل.. وهل إذا غادر سيعود مرة أخرى أم سيكون ذلك إلى الأبد.. أدرك أنه لا بد أن يصبر؛ فجوع ساعة ولا جوع بقية العمر.. تجدد الأمل فجأة عندما سأل المدير المالي وهو يزيد من سرعة حركة حبات السبحة في يده:

- هما عاوزين إيه؟

تلاقت العيون في حيرة.. اكتشفوا بعد لحظات أن أحدا لا يعرف ما يريدونه.. ولا لماذا تجمعوا أمام المصنع.. ربما يتحدثون عن المرتب، أو عن ساعات العمل.. لكن السكرتيرة قالت في عصبية:

- تلاقيهم هم نفسهم مش عارفين هم عاوزين إيه.

ضحك الجميع في توتر.. قال صاحب السبحة في هدوء:

- طيب ما نديهم كراتين زي بتاعة رمضان ونروّحهم ونتكل على الله.

هز السياسي رأسه:

- الرءوس الكبيرة مش هتهمد غير لو خدت المفيد.

صمت قليلا ثم سأل في خبث:

- هو إحنا لسه عندنا أوض في سكن العمال؟

بعد نصف ساعة تقريبا كانت العربات المحملة بالكراتين المضادة للإضراب تقف على بُعد نصف كيلو من المصنع.. كراتين كبيرة محتوياتها مكتوبة بدقة في ورقة المدير المالي الذي حدد محتوياتها من واقع خبرته في لجان الزكاة التي يديرها في منطقته؛

بحر الكتب
bahr.alktob

علبتان سمن بلدي، كيس أرز كبير، زيت، فول، صلصة... إلخ.. إلخ، وقوفها بعيدا كانت فكرة السياسي من خبرته في الانتخابات: مَن يأخذ يجب أن يغادر؛ لن يعود أحد إلى مكان الإضراب وهو يحمل كرتونة وزنها عشرة كيلو جرامات.. ولن يتركوها خوفا عليها من باقي الزملاء في القضية.. في الوقت نفسه كان الخمسة الكبار يتفاوضون مع العضو المنتدب على تخصيص شقق صغيرة لهم في إسكان العمال.. مع السماح لهم بتأجيرها لحسابهم طوال سنوات عملهم في المصنع.. ورجال مجهولو المصدر نزلوا خلسة وهم يرتدون ملابس العمال لضرب مَن لم يذهبوا خلف الكراتين والذين لم يتجاوز عددهم العشرات، وحريق المخزن يُطفأ على مهل بسيارة مطافئ واحدة، ومدير الأمن يُدلي بتصريح لصحفي من أقاربه عن حريق محدود في واحد من مخازن المجموعة تمت السيطرة عليه.. وعطية ممدد على السرير في العيادة في انتظار وصول الطبيب بعد أن خَرَّ مغشيا عليه فجأة فحمله رؤساء إضراب العمال إلى الغرفة المجاورة بناءً على أمر رئيس مجلس الإدارة.

في أول جلسة تالية سأل العضو المنتدب عن الأخبار.. عرف أن العمال هدءوا تمامًا بعد أن أصبحت الكرتونة تُصرف بمعدل شهري ثابت بدون أي تكلفة إضافية، لم يلحظوا أو لم يسألوا عن سبب فصل ربعهم بأسباب مختلفة على التوالي.. فالأمر أعطى فائضًا لا بأس به صُب بعضُه في جيوبهم.. أسعدهم أيضًا أنَّ أَقْدم عامل من الخمسة الكبار أصبح يحضر الاجتماعات الطارئة بعد أن أصبح هو رئيس الرابطة بالتعيين ولم يعترض عليه أحد لتاريخه الثوري في المصنع.. وسعد الساعي الجديد يجيب عن كل

بحر الكتب
bahr.alktob

إشارات المدير رغم أنه يناديه عطية بحكم العادة، لم يلحظ اختفاءه المفاجئ إلا عندما سأله عليه مدير الأمن في شك.. أمسك بهاتفه واتصل بالطبيب الذي أجابه في عَجَل:

- عطية الساعي؟! أنت لسه فاكر.. ده مات يا فندم.. مات من الجوع.. الحمار كان بياخد جرعة أنسولين كبيرة.. وخدها يومها من غير أكل.. دخل في غيبوبة.. واتّكل على الله بعد أربعة أيام.

أغلق المدير هاتفه وهو يحوقل.. حكى القصة للجالسين فترحموا عليه جميعا. توالت القصص عن الموت المفاجئ..أبدى رئيس العمال الجديد حزنه الشديد لأنه كان يعرفه جيدا.. أصدر المدير أمرًا بإرسال ألفي جنيه لأهل عطية على سبيل المشاركة في المصيبة.. أخبرته السكرتيرة أن عطية «مقطوع من شجرة».. هز الرجل رأسه في حزن وهو يأمرها بأن تتصدق على روحه بمائتي جنيه.. لم يسمعه أحد من الجالسين.. فقد كان المدير المالي يتابع حركة الأسهم على جهازه، ومدير الأمن يقرأ التقرير الذي جاءه بالأمس، ورئيس العمال يفكر في قائمة الطلبات التي أخذها من العمال منذ أسبوع، والسياسي يفكر في اجتماع الحزب اليوم، وسعد يقف في الركن مترددا في إعلان أنه جائع!!

بحر الكتب
bahr.alktob

كل شيء على ما يرام!!

كل شيء على ما يرام.

تجول بناظريك.. الفجر على وشك البزوغ، الشارع الضيق يبدو هادئا بلا صخب، النوافذ المغلقة تمنع دخول التراب وخروج الأصوات، والملابس المعلقة على الحبل مُرتبة بالطريقة الصحيحة، ملابس خارجية؛ ناصعة البياض وزاهية الألـوان على الحبل الخارجي، والملابس الداخلية التي اهترأت أطرافها وامتلأت ثقوبا في الوسط تختفي على الحبل الداخلي.

ادخل بعينيك من هذه النافذة المغلقة إلى حجرته الهادئة.. ستراه يرقد ساكنا، دخان سيجارته يخرج متراقصا كدودة طويلة تتلوى صاعدة إلى السماء، يبدو على وجهه الهدوء التام وهو راقد على تلك الأريكة التي تبدو أعرض من كل الأرائك المعتادة، كما لو كانت سريرا صغيرا. يبتسم وهو يأخذ نَفَسا عميقا من سيجارته، ثم يتردد صوته عاليا في جنبات الحجرة التي تبدو لك خاوية:

- عاوزة حاجة قبل ما أنام؟

بحر الكتب
bahr.alktob

- لأ شكرا، بس ما تطفيش النور!! يخرج صوتها مكتوما ضعيفا منكسرا من الفتحات العديدة الموجودة في الجوانب الخشبية للأريكة.

- طيب تصبحي على خير.

همست هي بصوت غير مسموع:

- إلهي ما تصبح.. ولا توعى.

نفس حوار كل ليلة، ونفس الإجابة.. يبدو أن السماء لا تستجيب لأحد من قاطني الغرفة؛ فهو ما زال يُصبح ويعي، وهي.. لا تصبح على خير.. لأنها ما زالت على ذمته!!

اقترب بعينيك أكثر، اخترق جنبات الأريكة الخشبية لتراها ممدة في قفصها الضيق المظلم، ترتدي جلبابا كالذي ترتديه عشرات السيدات في نفس الحي، من الدَّمُّور الرخيص، عليه بقع متعددة ومتباينة لم تحاول يوما أن تتخلص منها؛ فالأمر لا يستحق!!

دعها تنام ولا تندهش؛ فهي اعتادت النوم على تلك الحال بعد أسبوع واحد من زواجها. أول ليلة كانت مرعبة؛ دخلت المنزل وهي تحمل أحلاما تماثل أحلام أي عروس، ابتسمت في دلال عندما قَبَّلَها بنهم، تركته يخلع ملابسها قطعة تلو الأخرى، استكانت له تماما.. لم تفهم ما الذي جعله يفتح «سحارة» الأريكة الضخمة.. ثم يحملها بين ذراعيه ويضعها في قاعها ويرص أخشابها فوقها ثم يضع المرتبة، وهو يلعن النساء ورغباتهن وضعفهن... لم تفهم لدرجة أنها لم تعترض. صديقاتها أخبرْنَها عن الرجال غريبي

بحر الكتب
bahr.alktob

الأطوار، ظنت أنه أحدهم.. النور الذي كان يتسلل من فتحات الأريكة كان يطمئنها قليلا، انتظرت أن يفعل شيئا آخر، عندما ساد الصمت.. نادته في خوف:

- أنا هاتخنق كده يا سيد.. بلاش اللعبة دية الله يخليك.

- ديه مش لعبة ياراضية.. أنتي هتنامي هنا لغاية الصبح.

ارتفعت صرخاتها رافضة.. لم يتحرك هو من مكانه، ظلت تبكي وتصرخ حتى تعبت تماما، استكانت وهي تنتظر، عندما فتحت عينيها في الصباح كان أكثر شيء أدهشها أنها غفت في النهاية؛ نامت في الكنبة الصندوقية الأشبه بالتابوت، أدهشها أيضا أنه ناداها لتتذوق الإفطار الذي أعده هو لها كأن شيئا لم يكن.

سألته في حيرة:

- هو إيه اللي حصل إمبارح.

أجابها بلا مبالاة وهو يواصل إفطاره:

- نفس اللي هيحصل كل يوم، لو مش عاجبك أطلقك.

- حرام عليك هو أنت لسه اتجوزتني؟

- شوفي أنتي بقى، سيرتك هتبقى على كل لسان!!

لم يكن يحتاج أن يقولها لها فقد كانت تعرف، ولم تكن أمها تحتاج أن تكررها على مسامعها بعد أن تلعن حظ ابنتها العاثر، فقد كانت تعرف، وبالطبع لم تخبر أباها الذي كانت سعادته بالتخلص من واحد من الأفواه المفتوحة تفوق أي شيء آخر؛ فقد كانت

بحر الكتب
bahr.alktob

تعرف؛ ستسمع النصائح المعتادة؛ أن تحايله وتناغشه إلى أن تسيطر عليه؛ طبقا للخُطط الموضوعة منذ قديم الأزل لكل نساء الحي.

اليوم هو اليوم السابع والثلاثون بعد المائة الخامسة من أيام الزواج، فشلت كل محاولاتها للتحرر من أريكته القاسية، تريد أن تعرف السبب. لم تعرف هي السبب حتى الآن، كل ما عرفته أنه كان يعيش في هذه الغرفة مع أمه وزوجها بعد موت أبيه، وما لم تعرفه أن الزوج كان يرفض أن يجامع زوجته إذا كان في الغرفة عينان يمكن أن ترياه حتى لو كانتا صغيرتين ومغلقتين.

اليوم هو اليوم السابع والثلاثون بعد المائة الخامسة من أيام الزواج، قضت ليلتها وجسدها يشتعل رغبة في «رَجُلِها» الذي يرقد فوق الألواح والمرتبة الراقدة فوقها، أمانيها انحصرت في نزوله إليها لبضع دقائق، نادته فتصنع النوم وعلى وجهه ابتسامة ساخرة بلهاء.

يملؤها شعور بالرغبة في الانتقام أو الصلح.. في الحرب أو السلام. كل محاولات الصلح باءت بالفشل.. ولم يبق أمامها سوى الحرب!!

اليوم هو اليوم السابع والثلاثون بعد المائة الخامسة من أيام الزواج.. وهي ترى الآن شيئا قد يتفق أو يختلف مع ما تراه لها أنت.

في الصباح قامت بعد أن غادر إلى عمله، أخرجت قميص نومها الأحمر المكشوف اللامع الذي لم تسمح لها الأيام بارتدائه، فكَّت شعرها وأعدته جيدا، فاليوم سيأتي مُحصل الكهرباء الذي طالما رأت في عينيه الخضراوين شهوة جامحة.. النية مبيتة تمامًا؛

بحر الكتب
bahr.alktob

ستدعوه إلى الدخول، وستستمع بمفاجأته عندما يعلم أنها ما زالت عذراء، ستحكي له كل شيء لكي يعرف أنها منتقمة وليست خائنة، وستحتفظ ببقع الدماء على ملاءتها المصفرة لتريه إياها.. وليعرف أنها انتقمت منه.

تتوتر قليلا عندما تتخيله يضربها بقسوة، تقوم مسرعة لتحضر السكين الكبير وتخبئه في الأريكة، نعم ستقتله إذا ضربها.. وستفضحه بعد موته وتسلم نفسها؛ فالسجن سيكون ولا شك أرحب من هذه الأريكة.

تَشرُد للحظات، لماذا تسلم نفسها؟ فلتهرب، فلتتركه وتترك أمها وأباها والفضائح والأفواه وتهرب بعيدا بعد قتله، ستجد عملا في أي مكان، وتعيش حرة بدلا من الزنزانة الكبرى والزنزانة الصغرى!!

تبتسم عندما تتخيل نفسها حرة طليقة، كل ما سيعكر عليها صفوها هو خوفها من القبض عليها.. تسأل نفسها في دهشة، إذا كانت ستهرب فَلِمَ تقتله؟ من أجل الانتقام؟! يكفيها انتقامها منه بالخيانة، عندما يعرف أنها خانته في بيته وفوق الأريكة التي طالما حبسها فيها. لن تتركه يحبسها حيا وميتا، ستكتفي بأن تمتع المحصل وتستمتع به وتدخل معه الدنيا التي لم تدخلها مع ذلك المجنون، بعدها ستهرب.. إلى أي مكان بعيد. ربما عليها أن تطلب من المحصل أن يأخذها معه، لن يرفض إذا اختارت هي التوقيت الصحيح؛ في الدقائق الشرهة التي تسبق اللحظة الحاسمة والتي لا تعرف عنها أي شيء سوى ما سمعته من صديقاتها وهن يضحكن.

بحر الكتب
bahr.alktob

تقوم إلى المرآة، على وجهها ابتسامة شريرة لم ترتسم على وجهها من قبل، تنظر إلى جسدها المشدود.. تدور حول نفسها دورة كاملة.. تنثر العطر على كل ما لم تعطره من قبل.. تجلس بعدها على الأريكة محتضنة ركبتيها وقلبها يدق بعنف.

تسمع خطواته التي تحفظها جيدا تقترب.. تتعالى دقاته على الباب، فتتزايد دقات قلبها عنفًا.. يخرج صوتها متحشرجا:

- مين؟

- النووور!! قالها ممطوطة لئيمة أكثر من كل الشهور السابقة.

تقوم مضطربة من مكانها، تتحرك في كل أنحاء الغرفة بغير هدف، تتوقف للحظات، ثم تعود إلى مكانها فوق الأريكة مرة أخرى، تتوالى دقاته.. واحدة تلو الأخرى، كل دقة تزيد جسدها ارتعاشًا، يعلو صوته مناديا، ثم مناديا.. ثم مناديا.. ثم لاعنًا. تسمع خطواته وهو يبتعد، تسيل دموعها متزامنة مع نحيبها المكتوم، تمد يدها لتتأكد من أن النافذة لا تزال مغلقة بإحكام، تقوم لترتدي جلبابها الدَّمُّور، وتدخل لتنام في أريكتها منتظرة وصوله.. وفي صدرها شيء ما!!

بحر الكتب
bahr.alktob

على وجه السماء

- عاوز القرد اللي بيتشقلب.

ألقى عليه نظرة طويلة، هز رأسه يمينا ويسارا في إحباط، ارتفع صوته مناديا على ولده الصغير الذي كان يلعب أمام المقهى:

- روح هات لعمك قرد من الدكان.

نظر إليه مستفسرا، عاجله صديق الأب موضحا:

- فانوس رمضان.

هز عم صلاح رأسه نافيا.. وهو يضغط على كلماته:

- القرد اللي بيَد يا بني.. بسرعة.

عاد الصغير بعد لحظات حاملا القرد البلاستيكي.. دفع الرجل ثمنه، ابتسم وهو يضعه أمامه على المنضدة، ضغط زر التشغيل، ضحك جذلا وهو يراه يدور وينقلب، عيناه تُخرجان ضوءًا أحمر ضعيفا، هز رأسه متمايلا مع الأغنية التي انطلقت، نادى بدوره على ولده الذي أخذه سعيدا بعد أن منحه قُبلةً شاكرة.

بحر الكتب
bahr.alktob

نظر الصغير إلى قرد صديقه في حسد، امتدت يده خلف ظهره ليُخفي فانوسه الذي أهداه له أبوه، كل عام يشتري له واحدا جديدا، نفس الشكل التقليدي القديم؛ زجاج ملون، شمعة تمتد في داخله لم يهتم الصغير بإشعالها من قبل، لا يريد أن يسمع نفس الكلمة التي يسمعها كل عام عشرات مرات: «فانوس أثري»؛ رغم أن أباه يملك أكبر متجر للعب الأطفال في الحي، ورغم أن الصغير يعلم أن فانوسه أغلى من كل الباقين.. إلا أنه كان يخجل منه.

تعالت ضحكات المشتري مرة أخرى وهو يخاطب ولده الذي لا يزال واقفا أمام المقهى:

- أغنية الفانوس. قالها بسعادة وهو يشير إلى تلفاز المقهى. تابع بعد لحظات:

- يا سلام عليهم.. حتى فانوس رمضان عملوه.

ألقى صلاح نظرة على المغنية التي ترقص شبه عارية، أدار وجه ولده بيده، جرَّه خارجًا من القهوة في غضب.

التفت إلى رفيقه أن يخرج:

- لا فانوس.. ولا رمضان!!

ارتفعت ضحكات الجالسين، يتهمه أغلبهم بأنه دَقَّة قديمة، يطلق عليه أحدهم في نفس الوقت من كل عام: عم فانوس.

يمشي متثاقلا إلى محله القابع في أول الحارة، يتذكر عندما كان يعمل مع أبيه في طفولته؛ أفضل صناع الفوانيس. يختار الصاج والزجاج بعناية فائقة؛ ألوان الزجاج لا بد أن تكون زاهية، الباب

بحر الكتب
bahr.alktob

لا بد أن يكون سهل الفتح، المسافة بين اليد والشمعة لا بد أن تضمن ألا يلسع من يحمله.

- «بنعلم العيال الذوق». كلمته التي كان يرد بها على كل مَن يتعجب من ارتفاع تكلفة الفانوس.

يجيل عينيه في الحارة.. كل شيء تغير؛ الهواء والناس.. حتى الأرض التي يمشي عليها، أبوه نفسه تغير قبل وفاته، ترك الصنعة، تحول إلى بائع لعب أطفال.. وأورثه دكانه.

كبر الدكان بين يديه، أصبح أشهر تاجر لعب أطفال في المنطقة، يعرف البضائع الرابحة جيدا، إلا أنه لم يستطع أن يتوقف عن إحضار الفوانيس التقليدية كل عام، بيعها أصبح صعبا، بينه وبينها ذكريات طويلة تجعله يأتي بالكثير منها كل عام من ورشة يؤمن تماما أن صاحبها فنان. بالرغم من الفقر والمرض يجد سوقا لبعض الفوانيس الكبيرة؛ يعلقها بعض التجار على أبواب محالّهم.. مجرد زينة.

أفاق على أصوات الأطفال تهلل مع الظلام الدامس الذي غشي الحارة يضيئون فوانيسهم فتغني بصوت قبيح وضَوء خافت متراقص، ترتفع صيحاتهم عن بُعد؛ ينعون حظهم على الليلة التي انتهت قبل أن تبدأ.

يرتفع صوته مناديا ولده الذي يُجيبه من مسافة قريبة؛ يأتي مُتحسسًا طريقه في الظلام، تمتد يد الأب إلى الفانوس وسط دهشة الصغير، يُشعل شمعته في حرص، تتسع ابتسامَتَيْهما.. الضوء يأتي من خلف الزجاج الملون لينير الدائرة من حولهما، ينظر إلى صديقه.. اللون

بحر الكتب
bahr.alktob

الأحمر الخارج من عينَي القرد أضعف من ضوء السيجارة التي في يد أبيه، يضعه على الأرض فيتراقص القرد بلا نور.

يبدأ الأطفال في الالتفاف حول الفانوس المنير، يبتسم الأب في سعادة، يهرول إلى محله، يتسلق السلم الخشبي لِيُنزل من الرف العلوي المزيد من الفوانيس الحقيقية.

- خدوا يا أولاد.. هدية من عمكم.

يتدافع الأطفال ليأخذوا الفوانيس، يشعلونها الواحد تلو الآخر، دائرة الضوء تتسع، تتراقص مع ارتفاع صوت أحدهم وهو يدير فانوسه في دوائر صغيرة:

- وَحَوِي يا وَحَوِي.. تنطلق أصوات باقي الصِّبْية متتابعة في نشاز طفولي يزيدها جمالا وبهجة.

يتنهد العجوز الجالس على المقهى في شوق وهو يغني معهم بصوت خافت.. تنبعث من إحدى الشرفات ضحكة أم مَيَّزت صوت ولدها الحادّ بين الجمع. أما عم صلاح، فقد أشرق وجهه عندما بدا له الهلال الرفيع أكثر ضياء من كل ليلة، كأنه ابتسامة رقيقة.. على وجه السماء.

بحر الكتب
bahr.alktob

طبقًا لنظام الحديقة

في أعماق ظلام يكاد يكون دامسًا لولا بعض الأضواء الخافتة. تقطع الصمتَ أصواتٌ تردد بين الفينة والفينة دون أن يلتفت إليها أحد، يختلف حاله تمامًا عما هو عليه في الصباح. عندما يواجههم فينظر إليهم في تحدٍّ ولا يكف عن الحركة لحظة واحدة، كما لو كان آليا غير قابل للتعب، أما في المساء فهو في سكون تام. عيناه ثابتتان لا تتحركان، ينعكس فيهما الضوء مرعبا فلا يؤنس مَن يراه.

يقطع سكونه فجأة، يهوي بأماميته على القضبان الحديدية التي أمامه فيتطاير شَرَر غاضب. يعلو زئيره حانقا.. مرة بعد مرة بعد مرة.. تهتز جميع أنحاء الحديقة النائمة، وتتردد أناشيد الانزعاج والخوف والبلاهة من كل الحيوانات.

يقترب من قفصه مهرولًا، ينحني في حركة سينمائية وهو يصيح:

- مولاي.. أنت الليلة غاضب.. مثل سابقتها وسابقتها. يرفع رأسه فجأة.. يعلو صوته مجلجلا:

- أنا أيضًا غاضب مثلك.. هل سمعت ما قاله عني المدير الأحمق؟

بحر الكتب
bahr.alktob

يقف أمام القفص ثابتًا رغم أن عينَي الأسد تبدوان كما لو كانتا تحترقان غضبا، هو أيضا يُخرج من عينيه ضوءًا غير مرئي من نيران الغضب، تلتقي عيونهما فيزأر الأول، فيجيبه بآهة مليئة بمزيج من الغضب والنقمة والألم يتبعها بضحكة ساخرة وهو يقول متهكمًا:

- زئيرك لا يخيفني.. أسمعه خافتا مقارنة بما يتردد في رأسي طيلة الوقت منذ حدث ما حدث.

يميل على القفص هامسًا:

- نظرات البيطري إليَّ مليئة بالاتهام؛ قال لي بعجرفة: الحمقى فقط يحاولون أن يستمدوا الحياة من الموت. لا بد أنه يعرف.. فقد نظر إليَّ باحتقار وهو يقول: ليتك تعلمت من الأسد الذي تحرسه.

يبدأ الأسد في حركته الموازية لجوانب قفصه وهو يزوم في غضب جامح، يفتح هو الرغيف الذي يمسك به ويلقي بقطعة اللحم الكبيرة أمام الأسد:

- لعلك جائع!

يتشممها الأسد، يدير رأسه بعيدًا ويواصل حركته العرضية، تبدو ثورته جامحة وهو يمشي إلى جواره لا يفصلهما سوى قضبان القفص. يصيح مرتجفًا:

- لماذا لا تأكلها؟! ألِأَنها بقايا غزال نافق؟! أنت هنا مثلنا جميعا؛ تأكل ما يُلقى لك في نهاية اليوم لتظل حيًّا، إياك أن تكون قد صدقت ما يقوله ذلك البيطري الساذج.

يتوقفان في آنٍ واحد كما لو كانا متفقَيْن على الوقوف، ينحني

بحر الكتب
bahr.alktob

ليحضر جذع شجرة من الأرض.. يصفع به القضبان الحديدية فيهب الأسد واقفا على خلفيتَيْه ليمسك به، يتعالى خليط من زئيره مع صوته وهو يصيح:

- أرني قامتك وقوتك، لماذا تنحني مثلي لو كنتَ مَلِكًا حقيقيًّا؟ أنا ظللت أنحني إلى أن وصلت إلى هنا، جامعي يحرس الأسود!!

يطبق الأسد فَكّيه على جذع الشجرة، يقاومه محاولا سحبه لكن الأسد كان قد تمكن منه، يجذبه جذبة مفاجئة فيفلته ويسقط على الأرض، يجذب الجذع إلى داخل القفص ويبدو عليه شيء من الهدوء.

يقوم لينفض التراب عن سترته الصفراء، يميل على القفص غاضبا:

- أنت قوي؛ لهذا حبسوك هنا طبقا لنظام الحديقة.. الأقفاص الضيقة للأقوياء، والجبلاية الشاسعة للقرود، والحرية التامة للفئران والقطط والكلاب الضالة.

يمسك ببقايا الجريدة التي كان يلف فيها رغيفه، يَخرج صوتُه منغما:

- هل تريد أن أقرأ لك أخبار الحديقة؟ اسمع يا مولاي: الزرافة ماتت اليوم عقب إصابتها بمرض مجهول، جثث الحيوانات النافقة تختفي منها أجزاء كاملة، مصادر تقول إن النعامة لم تعد تدفن رأسها في الرمال لأن الطين يلف رأسها كاملة حتى وهي مرفوعة، مدير الحديقة يتهم الحارس الليلي بالجنون وينوي طرده لأنه يحادث الحيوانات ليلًا، تصريحات الطبيب البيطري عن الأسد كلها كاذبة.

بحر الكتب
bahr.alktob

يلتفت إلى الأسد الذي يرقد كما لو كان سيخلد إلى النوم، يشرد للحظات ثم يجري إلى غرفته ويعود ببندقيته المشحونة، يصوبها إلى الأسد الذي يهب واقفا ويزأر زئيرًا مرعبا.

- سأثبت لك أن البيطري مخطئ؛ ينتظر إلى أن يتحرك مبتعدا عن بوابة القفص، تمتد يده بلا تردد ليفتح الباب وهو يصوب إليه البندقية مرددا في ذهول:

- اخرج.. انطلق.

يبتعد بضع خطوات، يقف منتظرا، يقف الأسد ثابتا ناظرًا في الفراغ.. يدق بسلاحه على القضبان غاضبا:

- لماذا لا تخرج.. تريد أن تثبت أنه على حق؟ يتحرك الأسد قافزا في اتجاه الباب المفتوح.. يتراجع في خوف.. ترتفع كفه بمخالبها الحادة وتهوي على البندقية المشهرة لتطيح بها بعيدا، تلتقي العين النارية بعين لم يبقَ فيها سوى صرخات الخوف، يسقط مرتطما بالأرض كالحجر، تمتد رأس الأسد إلى الجسد المُسجَّى، يتشممه من رأسه إلى قدميه، يستدير ببطء ويعود إلى القفص ليقف خلف القضبان في سكون مهيب.

في الصباح.. كانت الحديقة كلها تتكلم عن الحارس الذي مات خوفا وهو يحتضن سلاحه، وعن الأسد الذي لم يغادر قفصا ظل بابه مفتوحا طوال الليل.

هز المدير رأسه وهو يصرخ: قلت إنه مجنون، وضحك البيطري ساخرًا وهو يكرر جملته المعتادة:

بحر الكتب
bahr.alktob

- مَلِك الغابة يأنف أن يعيش طليقا في حديقة عفنة؛ تموت حيواناتها من المرض والجوع. ثم أردف في أسًى وهو يمط شفتيه: كما مات ابن هذا الحارس الأحمق من جراء إطعامه بقايا الحيوانات النافقة!!

بحر الكتب
bahr.alktob

قلب سليم

في عينيها صدق يشطر ضميري إلى نصفين يصارع كل منهما الآخر، أتنهد حائرا: أيهما أتبع وكلاهما على حق؟! طالما وجدت وظيفتي سهلة، أحكم بما يُرضي اللهَ والقانون، كلاهما واحد في الأغلب، أما هذه المرة...

ملف قضيتها كان في وسط الأكوام التي أغرق فيها كل يوم، ما يصل إلى المحاكم عادة ما يعني الكثير لأصحابه، أما بالنسبة لي.. مجرد عمل. كنت أظن أنه لم يعد هناك ما يمكن أن يدهشني، فالمربع الذي تَخرج منه القضايا أركانُه مكشوفة تماما، مال وبنون وجنس وانتقام، قَلَّما اختلف الأمر عن ذلك، تتغير الوجوه والقصة وبلاغة عريضة المحامي، لكن يبقى الجوهر واحدًا لا يتغير.. مطامع البشر.

تململتُ وأنا أقرأ عريضة دعواها بغير اكتراث، ابتسم ساخرا:

- تطلب تعويضا بعد ما يقرب من عشرين عاما؟! سيدة تُقلب في دفاترها القديمة، لا بد أنها أفلست.

بحر الكتب
bahr.alktob

الوظيفة والعنوان المدوَّنان أمامي واسم محاميها الشهير وما يتقاضاه يناقضون ذلك، أقرأ العريضة مرة أخرى فيُغلّفني صمت كئيب، قرأتها الثالثة فأعطيت جلستها موعدا مبكرا لأُرضي فضولي.

عندما نادى الحاجب على القضية كنت منتظرا، يبدو عليها من السنوات ما يفوق المدوَّن في بطاقتها الشخصية، وقار وهدوء وطيبة على وجهها تجعلها تكسب نصف قضيتها، أسأل عن المحامي فتجيبني بأنها تريد أن تتحدث عن نفسها.

- ثمانية عشر عاما مرت منذ ولادة أصغر أولادي، أبلغت طبيبي وتوجهت إلى المستشفى؛ يومها أنزلوني إلى غرفة العمليات، الطبيب الصغير وقف عاجزا إلى جواري في انتظاره، تأخر لسبب ما لم يهمني أبدا أن أعرفه، المولود يبحث عن طريق الخروج، آلامي تتزايد، أتأرجح بين الوعي وفقدانه، الولادة تتعسر، الكل في انتظار الطبيب، لم أره إلى أن غِبت عن الوعي، أفقت بعدها لأجد نفسي في غرفتي، أسأل عن وليدي! يصارع الموت في الحضّانة، حالته متأخرة، دعوت الله في حماقة ألا يموت ولدي!! وقد كان.

سعادتي كانت غامرة به كأي أم لأسابيع محدودة فقط، بعدها بدأت أعرف شعور نوع آخر من الأمهات، صدمات توالت على قلبي بمرور الزمان.. لا يسمع، لن يتكلم، إعاقة حركية، والطامة الكبرى كانت في مرضه العقلي.

أتنحنح هازًّا رأسي:

- مفهوم.. مفهوم، تريدين تعويضًا.

بحر الكتب
bahr.alktob

تجيب على الفور:

- نقود؟ بالطبع لا، أنا سأدفع.

أرفع رأسي مندهشًا:

- مكتوب في صحيفة الدعوى أمامي...

- المحامي أخبرني أن هذه هي الطريقة الوحيدة لقبول الدعوى، لكن بعد حسبة معقدة لقيمة التعويض عن عقل ولدي، صحتي وحياتي التي تآكلت، زوجي الذي تُوفّي في ريعان شبابه وانشغالي الدائم عن باقي أبنائي...

- ماذا تريدين؟

تتنهد:

- أريده أن يأخذ ولدي بعد وفاتي، يضمه إلى أبنائه وأحفاده، ويتعهد بحُسن معاملته وبالسماح لإخوته بزيارته وقتما يشاءون.

ترتسم ابتسامة ساخرة على شفتَيْ محامي الطبيب، تتسع عيناي دهشة، تتابع:

- لست مجنونة أو جاهلة؛ أنا أم لطفل اعتلَّ عقله على يد هذا الرجل، جسد وقلب محبوسان في عقل مريض، ولدي طيب مسالم غالبا، لكن ثورته تكون عنيفة أحيانا؛ يصرخ، يبكي، يحطم ما يقع بين يديه، أو يدق رأسه في أي شيء مما حوله.. أكتشف بعد محاولات مضنية لتهدئته أنه كان يحتاج شيئا بسيطا، قد يصفعني خلالها، أو يدق صدري بدلا من الحائط فيجيبه من داخلي قلب يكاد ينفطر..

بحر الكتب
bahr.alktob

أعذره؛ مَن مِنَّا مثلا يا سيدي كان ليحتمل ألما في أسنانه لا يستطيع التعبير عنه؟!

- لماذا لم تُدخليه مصحة؟

- لأنه ولدي، أحبه كما تحبون أنتم جميعا أبناءكم، بخصالهم السيئة والحميدة. منذ سنوات عديدة فعلتها، بعد إلحاح من زوجي أن نُدخله من أجل راحة باقي الأبناء، وافقته على مضض، قضيت ليلة طويلة أبكيه، افتقدت صياحه الذي طالما تحرجت منه أمام الجيران، عندما ذهبت إليه في الصباح، وجدته جالسا على أرضية الغرفة الفاخرة، رمقني بنظرة عتاب طويلة؛ أعقل نظرة رأيتها في عينيه منذ ولادته، احتضنته فلم يقفز بين ذراعيَّ كالمعتاد، بل أحنى رأسه في صدري وأخذ يبكي بصوت مكتوم.. يومها تعلمت أن ولدي يملك قلبا كقلوبنا جميعا، لم أتركه من يومها، عندما مات زوجي.. افتقده وبكاه معي كأنه يعرف ما حدث؛ إنه قلب سليم يريد أن يعيش مثل باقي القلوب.

تصمت لتشرب بعض الماء من زجاجة في يدها، تبدو كما لو كانت تحاول أن تبتلع الدموع التي غلبتها.

كلامها يرن في أذني، تذكرت ولدي الصغير، أتعبني دونًا عن باقي إخوته، تعثُّره الدراسي، تدخينه الشَّرِه، طالما لعنت أصدقاء السوء لكني لم ألعنه أبدًا؛ كنت أقول لكل ناقد: إنه ولدي.

أُفيق على صوتها هادئا:

- سنوات العمر التي تركت عليَّ آثارًا تفوق عددها كثيرا تخيفني،

بحر الكتب
bahr.alktob

أخشى موتًا يُريحني ويزيد من عذابه؛ مَن يرعاه بعدي؟ لا أريده أن يفسد على ولديّ ما بقي من حياتهما؛ تحملا معي ومعه ما يفوق طفولتَيْهما كثيرا، صارحتهما بمخاوفي، دَعَوَا لي بطول العمر ومنحاني وعدًا صادقا بأن ينتقل إلى بيتَيْهما بالتبادل، أغمضت عينيَّ على سنوات لا يعلم إلا الله كيف مرت عليَّ، لا ذنب لهما في أن أترك لهما ميراثا يفسد حياتهما وحياة أولادهما، إذن.. فلأبحث عن صاحب الذنب؛ فكرت مرتين، كان يستحق شقاء عاشه ولدي وعشناه جميعا، فليأخذ نصيبه معنا، يرعاه في حالة موتي، لن أتركه وحيدا في مصحة قاسية، أنا سأكتب له الوصاية على نصيبه من الميراث، على أن تسمحوا لولدي الأكبر بمتابعة أخيه وحاله في بيت الطبيب.

ألجمتني كلماتها، قوية متماسكة، حتى الدموع الرقيقة التي فرت منها تبدو شديدة الصدق، محامي الطبيب كان يمسك ملفا ضخما أعرف فحواه جيدا: لا يوجد إثبات بعد كل هذه السنوات على أنه الطبيب المولد، المضاعفات الطبية واردة الحدوث، أسباب هذه الحالة بخلاف خطأ الطبيب. نحَّاه جانبا.. لم يعد في حاجة إليه، قام واقفا بحنكته التي أعرفها جيدا، لم يتكلم أكثر من دقيقة موضحا عدم قانونية الطلب.

أضع كفي على جبهتي ثم أمسح بها وجهي مفكرا في عمق، لأول مرة أي حكم آخذه سيؤذي ضميرا عشت العمر أرعاه، ليتها تريد تعويضا، ليت ولدها يشفى ويعفيني من هذا الحكم، ليت هذه القضية لم تعرض عليَّ.

بحر الكتب
bahr.alktob

أناديها لتقترب، المحامي يحاول أن يمد رأسه ليسمع كلماتي:

- عريضة الدعوى لم تتغير، تمسكي بالتعويض الذي فيها.

تهز رأسها رافضة.. أُعاجلها في عصبية:

- مطلبك مستحيل.. اطلبي شيئًا آخر.

هزت رأسها موافِقة في استسلام، عَضّت على شفتها السفلى، وقالت بصوت خنقته دموعٌ تفجرت من عينيها:

- إذن فاحكم بأن يموت ولدي معي.. في نفس اللحظة.

بحر الكتب
bahr.alktob

مَحَلُّك سِر

(جزمة بُنِّي، قميصين جُداد، نضارة شمس).

تنهد مفكرا.. فهو أصغر إخوته؛ كلهم يعملون في أماكن مختلفة، ومع ذلك فلا شيء يتغير، حتى نومتهم واحدة. يجب أن يكون هو البداية.. ابتسم متخيلا أبويه وهما يَدْعوان له في فخر..أضاف إلى القائمة: «نضارة لأبويا، تصليح التلاجة لأمي، تصليح قزاز الشباك قبل الشتا».

تململ في جلسته، شعر بعدم الراحة، تلفت يمينا ويسارا ليتأكد من أن لا أحد من رواد المقهى يراقبه، مد يده إلى جيبه في حركة سريعة محاولا إعادة الوضع الداخلي إلى ما كان عليه؛ فملابسه الداخلية التي اصفرت من زمن اهترأت وأصبحت كشبكة اتسعت ثقوبها فلم تعد تحتجز أسماكا. أضاف سطرا آخر: «طقمين غيارات جديدة».

يمد يده لينفض بعض رماد الشيشة الذي جاء على «البدلة» التي يستخدمها لهذه المناسبات فقط.. المقابلات الشخصية لعمل

بحر الكتب
bahr.alktob

جديد، هذه المرة هو متفائل؛ صاحب العمل يبدو رجلا طيبا، أخوه الأكبر أكد له أنه سيُوظفه فهو يحتاج إلى مندوب مبيعات أمين.. الرجل يعرف أخاه جيدا ولا بد أنه سيطمئن إليه.

استعد جيدا للمقابلة؛ ذهب إلى الحلاق، ذقنه ناعمة كالحرير، كوى بدلته تحت ملاءة السرير؛ فهو لا يستطيع أن يخاطر بلسعها، أضاف نقطة من الجاز إلى علبة الورنيش التي لا تُفتح إلا في أيام المقابلات.. تأكد من أن حذاءه أصبح يلمع كالمرآة، استخدم ما تبقى من الورنيش لمسح الحقيبة السوداء الجلدية، ارتدى ملابسه بحرص، ابتسم وهو ينظر إلى نفسه في بقايا المرآة المعلقة خلف باب غرفته، مد يده ملتقطا الحقيبة بعد أن ملأها ببعض الأكياس والجرائد القديمة لتبدو منتفخة مثله.

يمشي في الشارع الضيق الممتلئ بحُفَر المياه وأكوام التراب والمهملات، يدير رأسه يمينًا ويسارًا متمنيا أن يراه الجميع، ينتابه شعور الفخر الذي يداعبه في هذه الملابس دائما، يترجم النظرات المحيطة به إلى إعجاب وغَيْرة وفخر طبقا للجنس والسن، يضع هاتفه المحمول على أذنه بعد أن ضرب رقما عشوائيا ليسمع نفس الصوت المعتاد:

– لقد نفد رصيكم.. يُرجى إعادة شحن البطاقة.

يُجيب وهو يهز رأسه موافقا في ثقة:

– أنا في الطريق.. لا لا مش ممكن أتأخر.. طبعا طبعا.. مع السلامة.

بحر الكتب
bahr.alktob

يرفع عينيه لأعلى متمنيا أن تكون واقفة في شرفتها لتراه اليوم، هي أيضا تنتظر أن يتغير حاله ليتقدم لها.. لم تكن موجودة ولا سبيل لديه للاتصال بها.. تتعلق نظراته بالشرفة وهو يبتعد في إحباط.. تزل قدمه في حفرة مليئة بالمياه العطنة فينطلق لسانه بسباب غير موجَّه، يشعر بالماء في حذائه منضغطا تحت قدمه في شعور مقزز، ينظر إلى ساعة هاتفه.. لا وقت للعودة لفتح علبة الورنيش مرة أخرى.. ينادي على تاكسي بصوت مرتفع قافزًا فيه وهو يتلفت حوله مرة أخرى.

تضاءل قليلا وهو يتلفت حوله في القاعة التي امتلأت بشباب في مثل عمره تقريبا؛ كلهم يرتدون بدلا داكنة اللون مثله، رنات المحمول لا تنقطع.. كل مَن يَرد تبدو عليه الثقة وهو يختلس النظر إلى الآخرين.. يجيل عينيه بحثا عن كرسي.. لا يجد، همس باسمه للسكرتيرة التي كان يبدو عليها التوتر من الزحام والتي كانت تطلب منهم أن يخفضوا أصواتهم كل بضع دقائق فعاجلته قائلة:

- قدامك عشر مقابلات على الأقل.. ساعة وتعالَ.

جلس على المقهى المقابل لمبنى الشركة.. طلب كوبًا من الشاي وشيشة يسحب منها أنفاسا عميقة ويتأمل دخانها وهو يطير إلى أعلى.. الورقة التي كتب فيها مشروعاته بأول مرتب لا تزال في يده.

ينتبه على صوت نقرات الصبي على صندوقه الخشبي:

- تلمَّع يا أستاذ؟

يتردد قليلا.. يعاجله الصبي وهو يشير إلى الفردة التي اكتست بالطين:

بحر الكتب
bahr.alktob

- خسارة الشياكة دي كلها.

يرد عليه الرجل الجالس عن قُرب:

- خد لَمَّع دي يا بني.. عاوزها مراية.

يلتفت إليه فيجد عجوزا أنيقا، ترتسم على وجهه ابتسامة:

- الراجل يِتْعرف من جزمته.

يهز رأسه موافقا وهو يخلع حذاءه في استسلام.

ينظر إليهما الصبي مبتسما.. يأخذ الحذاءين ويبتعد بضعة أمتار، ينطلق جاريا في لحظة فيقوم العجوز وهو يصرخ:

- الجزمة يا بن الـ...

ينطلق جاريا خلفه سابقا العجوز وهو يسب ويلعن.. لكن الصبي كان سريعا حقا.. وقف يتحسر في غضب وهو يراه يقفز فوق دراجة بخارية ويبتعد عن عينيه في لحظات.

عاد إلى مكانه متثاقلا.. يتلفت باحثا عن العجوز، يجده قد اختفى، واختفى معه هاتفه المحمول والحقيبة الجلدية الأنيقة، ينادي على صبي المقهى.. يلعن ويقسم ويصرخ: لا فائدة.

بعد دقائق كان يدخل إلى الشركة يتعثر خجلا؛ منظر «الشبشب» الممزق الذي اقترضه من مسجد مجاور على «البدلة» التي لم تعد أنيقة كما كانت، والعَرَق الذي يتصبب من وجهه أدهش الجميع.. ارتسمت على وجه صاحب الشركة ابتسامة آلمته وهو يدخل عليه

بحر الكتب
bahr.alktob

حاكيا له أن حذاءه وهاتفه وحقيبته كل ذلك سُرِق.. تغلبه الدموع فيقوم الرجل ليربت على كتفيه:

- أنت معانا من بكرة إن شاء الله.. يُخرج من جيبه مبلغا من المال.. راتب نصف شهر تحت الحساب.

يَخرج وعلى وجهه ابتسامة واسعة.. يهمس لنفسه: وعسى أن تكرهوا شيئا... يبحث في جيوبه عن الورقة التي كان يكتبها.. تركها في المقهى مع كل ما فقده هناك.. يعدّ النقود التي معه.. يجدها أكثر مما كان يتوقع لشهر كامل.. يحاول أن يتذكر ما كان مكتوبا في ورقته.

يدخل البيت حاملا صندوقه في حرص، يُقبّل أبويه وهو يخبرهم بأنه عثر على عمل جديد، يقترب من العجوز الذي ألصق وجهه بالجريدة محاولا قراءتها كما يفعل منذ كُسِرت نظارته، يحكي له قصة السرقة والمقابلة فيحوقل الرجل في غضب، يخبره عن أنه سيبدأ العمل في الغد فتنفرج أسارير الرجل، يميل عليه ويُقبّل يديه وهو يهمس:

- كنت عاوز أشتري جزمة جديدة للشغل. يُخرج الرجل النقود من جيبه في استسلام، يأخذها مبتسما وهو يُقبّل يده مرة أخرى، يفتح الكيس الذي دفع فيه كل ما أخذه من نقود، يتأمل الدبدوب الأحمر الذي سيعطيه لها في الصباح الباكر، يُخرج محموله الجديد منتشيا، يضعه على المائدة ذات الأقدام الثلاث في المكان الشاغر إلى جوار ثلاثة أجهزة أخرى تخص إخوته، يخلع العجوز جلبابه استعدادا للنوم، يعدّ ما تبقى في جيبه من نقود.. يتنهد مُحبَطًا وهو يتساءل في حيرة: لماذا لا يتغير أي شيء؟

بحر الكتب
bahr.alktob

عسكر وحرامية

لم أكره في حياتي شيئا مثلما كرهت هذه اللعبة؛ لأنها كانت تعني دائما أن أتوقف عن اللعب وأتحول إلى المشاهدة، كنت أُجيد لعب الكرة والاستغماية والسيجة والْبِلي، وكنت أكره المصارعة والضرب والشناكل.. لكنني أشارك فيها لأنني أَضرب وأُضرب، أما العسكر والحرامية.. فكنت أرفضها.. لأنني لم أُحب دور العسكر ولا دور الحرامية.

ربما كان أكثر ما جعلني أكرهها هو سطوة عمرو مجانص علينا كلنا.. وتحويله لكل الألعاب التي نلعبها إلى صراعات حقيقية؛ فالمصارعة مصارعة.. والضرب ضرب.. والعسكر وحرامية عسكر وحرامية.

بالطبع كان عمرو ورجاله فريقا ثابتا، ويتكون الفريق الآخر من الباقين، وكان هو مَن يُحدد ما سنلعبه صباحا ومساء، وهو الذي يضع كل القواعد؛ فالعسكر من حقهم الهجوم فقط والحرامية من حقهم الجري فقط! العسكر يحملون عِصيًّا خشبية صغيرة

بحر الكتب
bahr.alktob

يمكن أن يضربوا بها الحرامية، والحرامية لا يحق لهم ضرب العسكر حتى لو تجمعوا جميعا حول عسكري واحد وإلا اعتُبِروا خاسرين. كان الكل يوافق على اختياراته وقواعده التي كانت تتغير كثيرا من مرة لأخرى!!

حَسَمت أمري بعد عدة تجارب لم تمتعني.. لن أشارك في لعبة العسكر والحرامية؛ فلم أكن أريد أن أنضم لمَن يلعبون حرامية، ولا أن أنضم إلى عصابة عمرو التي لم أكن أحبها على الإطلاق، لكن عمرو لم يتركني لحالي؛ اخترع لي دورًا جديدا في اللعبة؛ أنا سأكون الماشي.. ودوري هو بداية اللعبة.. أقوم بالعد فيختبئ العسكر ويختبئ الحرامية.. بعدها يكون عليَّ أن أمشي من أول شارعنا الصغير إلى آخره.. حاملا في يدي أي شيء؛ كيسًا ورقيًّا مليئًا بالحجارة.. جردلًا بلاستيكيًّا قديمًا.. أو حتى صندوقًا فارغًا.. وتبدأ اللعبة عندما يهاجمني واحد من الحرامية محاولا أن يأخذ مني ما أحمله.. غالبا ما يكون أسرعهم وهو معتز الفار.. يظهر عمرو بعدها ويشير إليه صائحًا:

- حراااااامي.

ينطلق بعدها جاريًا سواء أخذ مني حملي أم لا، يجري خلفه فورا جميع العسكر.. إذا أمسكوا به ينهالون عليه ضربا بعِصِيّهم الصغيرة ثم يحبسونه في مدخل إحدى العمارات، ويكون عليهم الإمساك بباقي الحرامية وحبسهم واحدًا تلو الآخر.. ما الذي يحدث بعدها؟ لا شيء!! دور آخر.. يظل فيه العسكر عسكرا والحرامية حرامية؛ واللعبة سخيفة؛ ينتصر فيها العسكر دائمًا لأنها بلا وقت.. ويظل

بحر الكتب
bahr.alktob

الحرامية مختفين والعسكر يبحثون عنهم إلى أن يُمسكوا بهم.. في المكان الذي اختبئوا فيه أو بعد مطاردة قصيرة أو طويلة.. المهم.. أن مجانص ورجاله ينتصرون دائما.

في ذلك اليوم كنت أشعر ببعض التعب.. حاولت أن أعتذر عن دوري الممل فرفض عمرو وأصرّ.. لم أجادله كثيرا.. بدأنا اللعبة..بمجرد أن ظهر أحد الحرامية أعطيته قطعة الخشب التي كانت في يدي بدون مقاومة.. وجلست على حافة الرصيف منتظرا أن تنتهي اللعبة!!

- ما بتلعبش ليه؟

جاء صوتها من خلفي رقيقا هادئا كالمعتاد.. التفتُّ إليها وأنا أبتسم:

- مابحبش اللعبة دية.

كانت هناء جارتنا.. في السادسة من عمرها؛ تصغرني بعام واحد، رؤيتها تجعل قلبي يدق أسرع من المعتاد، وابتسامتها الرقيقة تجعلني أبتسم حتى لو لم أُرِد الابتسام.. جلَسَتْ إلى جواري على الرصيف، كانت ترتدي فستانًا أخضر منفوشًا، بانت ركبتاها الصغيرتان فأدرتُ رأسي في اتجاه عمرو الذي كان واقفا في منتصف الشارع يبحث عن الحرامية، وجدته يحدق في ساقيها فجريت وأحضرت جريدة كانت ملقاة على جانب الطريق وغطيت بها ركبتيها فضحكَتْ في رقة، أدار عمرو وجهه بعيدا في حرج، ظلتْ تنظر إليَّ وأنا مائل عليها ممسكًا بطرفَيِ الجريدة فوق ركبتيها، ضحكَتْ وهي تقول:

بحر الكتب
bahr.alktob

- إيدك هتوجعك.

أجبتها بصرامة مصطنعة:

- معلش.. كده أحسن.

ظللنا هكذا لدقائق دون أن نتكلم، لم يقطع الصمت سوى صوت عمرو بين الفينة والفينة:

- امسكوه.. دخّلوه العمارة، هاتوا ده كمان.. فيه واحد ورا العربية الصفرا.

قامت هناء من مكانها فجأة وهي تقول:

- تاكل مهلبية؟

لم تعطني فرصة لأجيب؛ انطلقت تجري بسرعة نحو بيتها وعادت بعد دقائق تحمل طبقين ممتلئَيْن بالمهلبية وملعقتين صغيرتين أطرافهما مصفرة.

- شكرًا؛ قلتها وأنا آخذ الملعقة الأولى لأجدها أحلى مهلبية تذوقتها في حياتي، ربما لأنني لم آكل مهلبية مع هناء من قبل! بدأتْ تأكل وهي تنظر لي وأنا آكل وأنظر إليها.. والابتسامتان تتسعان.. اقتربَتْ لتجلس إلى جواري فأوقفتها بإشارة من يدي:

- فستانك قصير.. وأنا إيدي مش فاضية.

هزت كتفيها في غضب:

- عاوزة أقعد جنبك.

بحر الكتب
bahr.alktob

قمت أنا ووقفت إلى جوارها.. واصلنا الأكل ببطء، انتبهتُ على صوت عمرو الذي كنت أمقته:

- عاوز مهلبية.

بدا على هناء الضيق.. نظرت إليه في تحدٍّ:

- روح هات معلقة وتعالَ.

هز رأسه في إصرار:

- هاجيب معلقة منين؟! هات معلقتك وكلوا مع بعض.

تجاهلته وأمسكتُ بيدها وابتعدنا قليلا.. مشى خلفنا عدة خطوات أمسك بعدها بذراعي وهو يقول بخشونة:

- أنت رايح فين؟ إحنا مش صحاب؟!

التفتُّ إلى هناء فرأيت بوادر الخوف على وجهها، شعرت بدماء رجل صغير تجري في جسدي، فناولتها طبقي ودفعته بكل قوتي فسقط على الأرض، انحنيت وأمسكت حَجَرًا كبيرًا من الأرض ونظرت إليه في غضب، التفتَ إلينا كلُّ من كانوا يلعبون وظهرت كل الرءوس المختبئة، لم أكن خائفا؛ فقوتي كانت تكفيني لأقاوم عمرو وأضربه حتى لو ضربني.. تردد عمرو كثيرًا، كان يبدو عليه أنه لا يريد أن يكسر زعامته التي بدا واضحا أنها هُدِّدت.. ظللنا نحدق في بعضنا.

علا صوته فجأة:

- وقّف اللعب!

بحر الكتب
bahr.alktob

ابتعد عنا وذهب إلى مدخل العمارة التي يتجمعون فيها بين كل دور وآخر.. شعرت بالراحة لابتعاده، وارتسمت على وجهي ابتسامة انتصار جعلتني أعود بهناء إلى حيث كنا نجلس، خيم على كلينا الصمتُ، لم تمد يدها إلى طبقها مرة أخرى، وواصلتُ أنا الأكل بغير استمتاع.

- عاوزة أروَّح.

كنت أعرف أنها خائفة، وكنت أنا أيضا خائفًا؛ لذلك لم أمانع، بل قمت خلفها ببطء دون أن أتكلم، التفتُّ على صرخةٍ خافتة خرجَتْ منها لأجد جميع الحرامية يجرون علينا في آنٍ واحد، جعلتُ هناء خلفي وبدأتُ في المقاومة، لا أدري كم ضربتُ منهم ولا كم ضُربت.. دقائق قليلة وكنت راقدًا على الأرض في عجز.. وكانت هناء تبكي وقد أخذوا منا الطبقين.

رَبَتُّ على كتفيها في أسًى وأنا أتحرك في اتجاه بيتنا، لم أستطع أن أقول شيئا لأُهدّئ من روعها.. رأيتهم يُسلّمون الطبقين لعمرو الذي أخذ واحدًا وأعطى الثاني لباقي العسكر.. فأدرت رأسي في غضب.. سمعت صوت معتز الفار يصيح في إحباط:

- أنت مش قلت اللي هيجيب المهلبية هيبقى من العسكر بعد كده؟!

ارتسمَتْ على شفتَيَّ ابتسامةٌ شامتة عندما تجاهله عمرو وهو يشير بيده إشارة معناها استئناف اللعب.. لا سيما عندما جرى في غيظ فتعثرَتْ قدمه فسقط على الأرض وجُرِحَتْ ركبته.. فقام ليُكمل جريه ورُكبته مجروحة وعيناه مغرورقتان بالدموع.

بحر الكتب
bahr.alktob

توقفتُ عن اللعب معهم من يومها تمامًا، وظل دوري في الشارع هو نفس دوري في اللعبة، وظلوا هم يلعبون دون أن يتغير شيء..عمرو مجانص ومَن تبقَّى من عصابته لا يزالون يقفون على ناصية الشارع.. يصفونه بأنه بلطجي أو حرامي أو فتوة، ويعرفون جيدًا أنه المصدر الرئيسي للمصائب في حَيِّنا.. أغلب أهل المنطقة يخافون حتى من ذكر اسمه، ويتساءل الجميع: لماذا يُفْرَج عنه بعد بضع ساعات في كل مرة يُقبض عليه فيها ليعود أقوى مما كان؟! أنا أعرف جيدا؛ عندما أرى معتز الفار الذي تزوج هناء منذ عامين ببدلته الميري ونجومها ينزل من سيارته الفارهة، وقفتهما لا تتجاوز دقائق معدودة.. يتكلم فيها معتز ويهز مجانص رأسه في بلاهة وطاعة، يتبادلان أوراقًا أو مظاريف أو لفافات، المرة الوحيدة التي التقَتْ فيها عيوننا؛ أنا ومعتز، ارتسمَتْ على وجهه ابتسامة ساخرة.. أما أنا فأدرتُ رأسي إلى الجهة الأخرى وأنا أهمس بصوت مختنق:

- حراااااااميييييييي!!

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

بحر الكتب
bahr.alktob

في مجموعته الجديدة، يستعرض حسن كمال كلّ ما بشخصياته من أعراض أدت لقصص مختلفة حتى يصل بها لسبب وحيد يبدو كخيط يحرك دوافعهم جميعًا؛ أنه لربما «كان فرعون.. طيبًا».

ففي عشرين قصة قصيرة تستعرض طيفًا واسعًا من البشر والمواقف، ما بين شخصية «مجاور» الهارب من الظلم، و«راضية» التي تنام في «سحّارة» الأريكة، ومختار الذي قطعوا رأسه وهو نائم ويريد تركيبها في جسده مرة أخرى، والفتاة الصغيرة التي تحارب كتيبة جيش من شرفتها، والرجل التائه في طريق مظلم بين مقابر المسيحيين والمسلمين.

حسن كمال؛ طبيب. تخرج في كلية الطب بجامعة القاهرة في عام ١٩٩٩، وهو حاليًا طبيب منتخب مصر للتايكوندو. حصل على جائزة ساقية الصاوي في القصة ثلاث مرات متتالية عن: «دفاع غير شرعي عن النفس»، و«رائحة غير نفاذة»، و «آثار على الزجاج»، وجائزة مؤسسة ساويرس الثقافية في مجال القصة القصيرة عن كتابه «كشري مصر».

قدَّم برنامجًا عن الكتب بعنوان «ساعة لعقلك» على إذاعة «نجوم إف إم» في عامَيْ ٢٠١٠ و٢٠١١.

9 789770 932193

دار الشروق